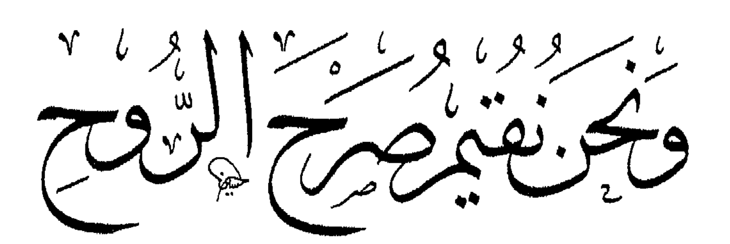


المؤلف: محمد فتح الله كولن

المترجم: عوني عمر لطفي أوغلو

ترجمة كتاب

Ruhumuzun Heykelini Dikerken

عن التركية

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الاولى: ٢٠٠٤م

الترقيم الدولي: ٤-١٦٢-٣١٥-٩٧٥ :I.S.B.N

الهاتف: (٩٠٢١٦٥٢٢١١٨٨+) فاكس: (٩٠٢١٦٥٢٢١١٩٩+)

اســتانبول / تركيــــا

مطبعة جاغلايان / ازمير- تركيا

الهاتف: (٩٠٢٣٢٢٥٢٢٠٩٧+)

Baskı : Çağlayan A.Ş. İzmir-TÜRKİYE

Tel : .+90.232.252 20 97

Ocak 2004

مقدمة المترجم للكتاب

يا غماماً يجوب شرقاً وغرباً   هاطلٌ غَيثُه فغيثٌ يُصيبُ

باذلاً خيرَه فما مِن مَلامٍ   كيفما سابقَ الجديبَ الخصيبُ

المترجم: عوني عمر لطفي أوغلو

تقديم

إذ أقـــدم هذا الكتاب للعالم الجليل محمد فتح الله كولن تستعصي الكلمات عـــلى التعـــبير عن هياج مشاعري وكوامن أحاسيسي. فعندما عهد إليّ بهذا العمـــل، اضـــطرم فيّ القلق والضيق خشية العجز عن الإيفاء بقول يليق حقا بكتاب أستاذنا المبجل. لذلك، أرجوكم أن تحملوا التشتت والطوف في السطح عـــلى عجزي واضطراب عاطفتي. فإن وجدتم فيه شيئاً من الخير والجمال فهو راجع إلى انعكاس أنوار الكتاب والأستاذ على كلماتي.

"ونحـــن نقـــيم صرح الروح" مقالات رئيسية منشورة في مجلة الأمل الجديد التركية، اختيرت وجمعت في هذا الكتاب. وإن السرور والبشرى لعظيمةٌ في جمع هذه المقالات التي كنت أترقبها – مثلما الكثير من قراء المجلة – بصبر ولهف. لقد كانـــت فواصل الزمن بين المقالة والأخرى مدداً متفاوتة. لكن المحور الفكري لها واحد وثابت لم يتبدل. فهي تدور حوله وترفده وتغذيه. فليس الكتاب مقالات مبعـــثرة جمعت بين دفتين، بل سلسلة منضودة بتخطيط متقدم، ومكتوبة بتنسيق فكري هادف، ترسم حدود الإحياء والانبعاث في الفكر والدعوة.

ولا يغيـــب عـــن متقصي آثار الشيخ فتح الله كولن وعوالم عقله، الثبات والتناســـق في جوهر أفكاره وعدم تناقضها أو تخالفها. بل يشهد تكاملها مع بعضها وتساندها وسيرها في طريق رئيس، شوطا بعد شوط.

ولقد تكاثرت آثاره، فهي مدرسة متكاملة، وتكثفت على سمات وفي محاور مثل التزعزع والتخريب الذي يعيش فيه العالم الإسلامي عامة، وإنسان هذا الوطن خاصة، منذ ثلاثة قرون، وغياب الأنموذج الحقيقي للإسلام وأسباب الغياب، والانبعاث الجديد في العالم الإسلامي، وحضور الإسلام في المستوى العالمي كرّةً أخرى، والمحركات والخصال الأساسية للجيل الذي سيحقق هذا الحضور. فمن هذه الزاوية، يشبه ما دبجه قلم أستاذنا الفاضل مقطوعة سيمفونية متكاملة ذات أصوات شجية ومنظومة. وإني أرى في الكتاب مجهوداً جديداً للمؤلف، محدّداً ومنظماً ومحيطاً، يرفد حركة الإحياء ويعضد أفكاره التي ينادي بها منذ زمن ويسعى في تحقيقها. ولذلك، أصف "ونحن نقيم صرح الروح" بأنه مرجع تحت الطلب لا يستغني عنه جيل الإحياء والانبعاث، أو من يسميهم الأستاذ "ورثة الأرض".

هذا الكتاب يقلب لنا أولاً صفحات العالم الإسلامي لنقرأها ونطلع عليها. فنعلم من هذه القراءة أن جغرافية المسلمين تعيش حالاً من العبثية والتناقض. ففي جهة، انحدار نحو هاوية الأزمات والضعف والجهل والخرافة والظلمات والخسران والعزلة والأنانية. وفي جهة، تسارع في التوجه إلى الله وجهاد في سبيل الولادة من جديد وظمأ الناس إلى اطمئنان وحبور يَعِدُ به الإسلام. الأزمة التي يسميها فضيلة الشيخ "أيام الانقراض"، هي جرح لا يندمل، أصاب العالم الإسلامي في القرون الأخيرة.

إن المسلمين الذين جعلوا الدنيا بُعداً من أبعاد الجنة ردحاً من الدهر، ضحوا بدينهم -وهو مصدر عزهم- لدنياهم، وضيّعوا التوازن الدقيق الممتاز بين

الكائنات والإنسان والحياة. فتنكّروا لتراث ألف سنة، وأحلوا محله نظماً موضوعة حديثة وهزيلة لا تناسب فطرة الإنسان. ولكن من الثابت أن دعوة الانبعاث، في "أيام الانقراض" الطافحة بالانكسارات والأزمات والعواصف، بقيت شرارةً في هذه الظلمات، على أمل أن تشتعل لهيباً في يوم آت.

إن العالم الإسلامي كله توّاق إلى الانبعاث بعد الموت وإلى الولادة من جديد، من أجل محق الانحرافات الحاضرة وإقامة حياة جديدة وصحيحة. "انبعاث وإحياء يحتضن الحياة كلها، ويستجيب لحاجات أنماط البشر كلهم، في رحاب الزمان والمكان كُلاًّ، بالسعة والعالمية التي تسمح بها مرونة النصوص، مع الحفاظ على أصالة الدين".

هذا الكتاب يدعو إلى التوجه نحو الإنسان والحياة والكائنات بمقترب إسلامي ويشير إلى أن المجتمعات المسلمة التي تتناسى المنطق والفكر والتصور الإسلامي "بحاجة ماسة ولازمة إلى رعاية مفهوم الإيمان، والنظر الإسلامي، وشعور الإحسان، والعشق والشوق، والمنطق، وطريقة التفكير، وأسلوب التعبير عن الذات، ورعاية المؤسسات والأركان التي تكسبها هذه الخصال، وإرشادها إلى التجدد بكل فئاتها وأصنافها".

ولا بد من "أنموذج إنسان جديد" لتحقيق هذا التحول العالمي، يتحمل سعته الشاسعة وثقله المطرد كسعته. ويسمي الأستاذ هذا الجيل الجديد "ورثة الأرض"، ويصفهم بأنهم "عباد صالحون، حياتهم العلمية منظمة ومنسقة، ثقات في أعمالهم وسلوكهم، أقوياء في المقومات الشخصية فلا تصرعهم الأهواء النفسانية، امتزجت عقولهم بقلوبهم"، فهم ممثلو الروح المحمدية والأخلاق القرآنية.

والكـــتاب تعريف وتعليل لنهضتنا الإصلاحية التي نقف على أعتابها. نهضة تتحقق في سياق عودة الشعب برمّته إلى جذوره الروحية. إن شعبنا الذي نهض لتحقـــيق الذات أكثر من مرة، جدير بالتغلب على "النفعية الذاتية، والكسل، وحـــب الشـــهرة، والأنانـــية، وطلب الدنيا، وقصر النظر، واللجوء إلى القوة العمـــياء" ومـــا يشـــبه هـــذه الأمراض، واكتساب فضائل مثل "الاستغناء، والشـــجاعة، ومحـــو الذات، والاهتمام بهموم الغير، والعلم، والفضيلة، وقابلية التفكير العالمي" ومن ثم تحقيق التحول الكبير بمحوره القرآني وسجيته الفطرية.

فحين يسرى في أبناء الشعب كله روحُ الإحياء، ينبلج فجرُ الانبعاث بعد الموت، أو النهضة العظمى، ويسترد شعبُنا الأمانة التي ضيّعها منذ سنين طويلة، فيصنع من الدنيا زاوية جنة كما صنع في الماضي.

وهـــو من وجهة، ينسج من آفاق القابل رؤيا مثالية تستنهض الهمم. ومن وجهة أخرى، يمحّص ويعلل حاضر العالم الإسلامي بمعضلاته وأزماته والعوائق الاجتماعـــية والتاريخـــية المعـــرقلة لتجديد بناء الفكر الإسلامي. ولا يفقد – فضـــيلته– في خضم ذلك ثقته بهذا الشعب الذي لم يخمد فيه جذوة الانبعاث أبدا. ولا بالآمال "الملّيّة"[١] التي تشبعت بها روحه.

---

١ الملّة ومشتقاها ترد كثيراً في الأدبيات التركية عموماً، كما في كتابات الأستاذ فتح الله كولن، ومعنى الكلمة في التركية غير معناها المتعارف عليها. فهي تستوعب معاني أوسع كالشعب وربما الأمة أو اتباع دين وطائفة. وحين نقول "الملي" نسبة إلى "الملّة" فاللفظ يكون مشبعاً في معناه بالدين والتقاليد والموروثات والخصوصية الذاتية العائدة إلى الأمة الإسلامية. فنرجو من القارئ الكريم أن يعذرنا متى ما أوردناها كما هي حتى نوفي بالمدلول الشامل أحياناً، وان يفهمها بهذا المعنى. (المترجم)

وبعــد تلخيص ملاحظاتي على الكتاب، أعرّج –مع ضعفي وعجزي– إلى بلاغة الأستاذ وأسلوبه الرصين في كتبه كلها. لقد اشتهر الأستاذ فتح الله كولن بانشـــداده إلى شـــعبه ومحركاته الحيوية التاريخية ووقوفه العميق على معطيات الفنون المتنوعة في الأدب والهندسة والموسيقى وغيرها من الفنون التي ارتقت إلى الذرى في مسيرة التاريخ لهذه الأمة العظيمة. ونحن نشهد وَلَهَهُ وعشقه لجذور الأمة الروحية ومحركاتها الأساسية في كل ما كتبه. وهل يجوز عليه غير ذلك، وهو وارث تلك الثقافة والحضارة؟

أما بلاغته ورصانة لسانه التركي، ففيهما ما يذكّر بقوة الأمة التركية يوم كانت أمة عظيمة، لها حشمتها وإحاطتها وكليتها الجامعة المحتوية على عناصر وأجواء كثيرة. فكأن بلاغته ورصانة أسلوبه حلقة في سلسلة تمتد إلى زمان ثراء التركية ورفاهها. فصياغته للتركية –كسبيكة الذهب– أصيلة وغنية، بسلاسة لســانه، وغنى معانيه، وقدرته على تصوير الأشياء والإنسان والكائنات. ولا عجــب مادام مستمدا من المحركات الحيوية للثقافة التركية في ذروة ارتقائها. فأسلوبه في التركية مذاب في القوالب القرآنية ومفعم بمؤثرات الحياة الإسلامية ومصـــطبغ بألوانها الزاهية ومرتبط بحلقة في سلسلة الأدباء الترك وأهل الصنعة العظام. هذا الأسلوب المتوشح بآثار تقاليد التصوف في الأدب، استمرار ودوام للمستوى الرفيع المنتقل إلى أوائل القرن العشرين والمنساب من بين أنامل ممثليه خـــالد ضـــياء، ومحمـــد عاكف، ويحيى كمال، ورفيق خالد، ورشاد نوري، ويعقـــوب قـــدري، وأمـــثالهم. وأحسب أن هذا محصلة تصديق دقيق وعميق لفضيلة الشيخ بأن حضارة ثرّة لا تنقل إلى الزمان القابل إلا بلسان بليغ مقتدر

علـــى بيان مضامينها. وأن لفضيلته في التركية تصرفات خاصة به، وتركيبات واشتقاق أوصاف وأسماء. ومن هنا أزعم —أنا الضعيف– أن الحاجة ماسة إلى قـــاموس بمعاني المفردات التي يستخدمها. ومَن يمحّص آثاره بحثاً وتدقيقاً، عن دراية باللسان التركي، سيجد تصرفات ذاتية ومفردات ثرية في أسلوبه. وأزعم أن هذا القاموس يدلنا على المستندات والعناصر الأساسية لخزينة الأستاذ الثقافية وعالمه الفكري.

وأختـــم هـــذا التقديم بأبيات لمولانا جلال الدين الرومي (مترجمة)، أراها معبرة عن محور هذا الكتاب:

ما أحسن أن تهاجر من أرضٍ كل يوم،

ما أجمل أن تحط في مقامٍ كل يوم،

ما أطيب أن تنحدر، زلالاً بلا جمد ولا كدر،

أمس ، رحلت نفسي الحبيبة، أمس،

فالكلام كله يرجع إلى أمس،

وينبغي أن نقول شيئاً جديداً الآن.

علي جولاق

استانبول/ أسكدار

كانون الأول/ سنة ١٩٩٧

دنيا في رحم الولادة

يمـــر العالم الإسلامي كله في عصره القريب الأخير، بأشد أزمة واجهَته في تاريخـــه، مـــن حيث الاعتقاد والأخلاق والنمط الفكري والمعارف والصناعة والعادات والتقاليد والأوضاع السياسية والاجتماعية.

لقـــد نجـــح المسلمون في تأسيس أكمل إدارة، تعجز عنها مدارك التصور الإنســـاني، لـــمّـــا كانوا زمناً أشد أهل الأديان تمسكاً بالدين، وأقوى الناس التزاماً بالأخلاق، وأسلمهم أعرافاً وتقاليد، وأجدرهم بقيادة الدنيا بسعة أفقهم السياسي والاجتماعي ونُظُمهم الفكرية. ذلك، بمعايشتهم للدين من غير خلل، وبكمال أخلاقهم، وعقلهم العلمي، وسبقهم الناس في كل عصر. واستطاعوا أن يمدوا سلطة إدارتهم -في ظل الأعمدة الثلاثة: الإلهام والعقل والتجربة- من جبال بيرينة إلى المحيط الهندي، ومن قازان إلى الصومال، ومن وبواتييه [1] إلى سد الصـــين... وأحيوا الشعوب التي في عهدتهم في هذه المساحة الواسعة، بأنظمة متخـــيلة في المثالـــيات، حتى جعلوا الدنيا بُعداً من أبعاد الجنة، وذلك في زمن كانت الدنيا تمر بأحلك العصور ظلمة.

---

١ بيرينة: سلسة جبال بين فرنسا وإسبانيا. وقازان: عاصمة جمهورية تاتارستان ذات الحكم المحلي في روسيا، والمدينة على نهر الفولغا. وبواتييه مدينة في فرنسا اشتهرت بمعركة بلاط الشهداء.

(المترجم)

ومن أشد ما يؤلم، أن هذا العالم وقد ابتعد عن المحركات التاريخية والقيم الإسلامية التي رفعت هامته قرونا طويلة، وقع أسيراً في قيود الجهل والانحلال الأخلاقي والخرافة والأهواء البدنية والجسمانية، فانحدر من هنا إلى مهاوي الظلام والخسران، وانحدر من هاوية إلى هاوية... مبعثراً، كحبات المسبحة إذا انفرط خيطُها، أو كصفحات كتاب انحل عقدُها، مهاناً تحت الأقدام... مهزوزاً ومزعزعاً، كدحه هباء وكفاحه عقيم، مقصوم الظهر بألف تفرق وتمزق... حائراً حتى البله إذ يغنّي أناشيد الحرية وصدره يتشظى أنيناً في أعظم أنواع الأسر عاراً... أنانياً بلا هوية. أعلن العصيان على الله والرسول متمردا على الأفكار المحظورة (!) لكنه صار بائساً أشد من البؤس نفسه تنهشه مخالب كثير من الأفكار المحظورة الأخرى... بل مطلقِ المساس بها وإن كان إيماءً!

لكن مدة الشدِّة القاسية الأخيرة هذه لم تدم أمداً، رغماً عن السراق في الخارج، وأكلة السُّحت والحرام في الداخل. فاليوم يخوض المسلمون -وهم خُمس البشرية- كفاح الانبعاث في كل أرض، ويناضلون للخلاص من هذا الأسر اللعين. وإن تعرضهم -في السنين الأخيرة خاصة- كل صباح لمصيبة، وكل مساء لنكبة، أعانهم على فتل حبلهم الروحي وهروعهم إلى الله وشد عزيمة كفاحهم.

ولقد تنفسنا نحن هواء "الحق يعلو ولا يعلى عليه"[1] شهيقاً وزفيراً، وفتحنا عيوننا وأغمضناها على ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ٢٨) حتى في أحلك

---

١ (الإسلام يعلو ولا يعلى): رواه الدارقطني والضياء في المختارة والروياني عن عائذ بن عمر والمزني رفعه، والطبراني والبيهقي عن معاذ رفعه، وعلقه البخاري في صحيحه. والمشهور على الألسنة زيادة (على) آخراً، بل هي رواية أحمد. والمشهور أيضاً على الألسنة: الحق يعلو ولا يعلى عليه (كشف الخفاء ١/١٢٧).

المراحل ظلمة، ذلك بفضل توافق روح الإسلام مع طبع الإنسان وإعانته على ارتقائــه المادي والمعنوي، وسموق ديننا الجليل إلى ذروة لا تطال في الموازنة بين الدنيا والعقبى... ولم نسقط أبداً في اليأس والانكسار. فكيف، والتسارع مطرد في الــتوجه إلى الإسلام في الناس من كل فئة، وفي دائرة تتسع، من أمريكا إلى آسيا، ومن الدول الاسكندنافية إلى استراليا، حتى صار الإسلام الشغل الشاغل؟

فمع المساعي التي تذهل العقل لمذاهب النصارى المتنوعة ومنظماتهم الكثيرة، لم تحظ الكنيسة بعُشر ما حظي به الإسلام من التعلق والاهتمام. فيختار مئات الآلاف كــل سنة الإسلام ديناً ويلجؤون إلى نور القرآن، في القارات كلها، وعلى وعي وعن علم بأنهم سيحارَبون بالجوع والفقر.

رجاؤنــا الوطيد المنتظر أن نشهد، قريباً -إن لم ننقض عهد الوفاء مع الله تعالى- معاني سورة النصر بعظمتها وهيبتها، كرّة أخرى... وأن ترفرف رايات الإيمــان والأمل والأمن، فالاطمئنان والحبور، في ظل الإسلام، مرة أخرى... وأن تــتعرف البشرية في الأرض كلها على نظام عالمي جديد فوق ما تتخيل، وأن يســتفيد كــل إنسان، بقدر ما تسع فطرته وأفق فكره، من تلك النسائم المنعشة.

وارثو الأرض

الدنيا تدور، وتدور. وكلما دارت، تنسحب إلى فَلَكها الأصل. فهل وارثو الأرض الحقيقيون جاهزون لاسترداد ميراثهم الذي أضاعوه، فخطفه غيرُهم قبل مـــدة؟ إن الحـــق الأول شيء، والحق المستلم بالتمثيل شيء آخر. فالحق إن لم يُمَـــثّل حســـب مقاييس قيَمه الذاتية، يمكن أن يُسترد في كل وقت، وإن مُنح ابتداءً لأمة معينة وَجَمْعٍ معين... فيُستَرد منهم، ويُسَلَّم إلى من يكونون الأسبق والأفضل نسبياً في الخير، إلى أن ينشأ الممثلون الحقيقيون.

يقول الله تعالى في الفرقان البديع البيان: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَـــرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥) ولا ينبغي أن يتردد امرؤ في توقـــع مجـــيء هـــذا اليوم، وهو وعد الله المؤكّد. ولن تنحصر هذه الوراثة بالأرض وحدها... ذلك، بأن مَن يرث الأرض ويحكمها، يحكم عمق الفضاء والســـماء أيضاً. إذن هي حاكمة في الكون كذلك. ولما كانت هذه الحاكمية بالنـــيابة والخلافـــة، فحـــيازة خصال التمثيل التي يريدها صاحبُ السموات والأرض الحـــق، لازمـــة وضـــرورية. بل يصح القول بأن تلك الرؤيا، وذلك الرجاء، يتحقق بقدر إدراك هذه الخصال ومعايشتها.

ولـــئن حرّم مالكُ الملك الحقُّ الإرثَ عمن ادعى وراثة الأرض الحقيقية في مرحلة تاريخية كثيفة بالضباب والدخان، لأنهم لم يبذلوا الجهد اللائق بالوراثة السماوية كما ينبغي، فإن الخلاص من هذا الحرمان يبدأ من اللجوء إليه تعالى مجدداً.

لقـــد وعـــد الله بإرث الأرض للصالحين من عباده... وهم ممثلو الروحية المحمدية والأخلاق القرآنية، المنشغلون بالاتحاد والاجتماع، المدركون لأحوال عصرهم، المسلحون بالعلم والفن، المقيمون لميزان الدنيا والعقبى. الحاصل، هو وعد لعقبان الروح والمعنى الذين يدورون في مدار نجوم السماء النبوية، وسادتنا الصحابة الكرام. إنه سنة الله... ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: ٤٣) سنة ثابتة "وشريعة فطرية" لن تتغير.

فيلزم لوراثة الأرض السعي الجاد في الصالحات ابتداءً. بمعنى معايشة الدين كما هو في القرآن والسنة، وجعل الإسلام إحياءً للحياة، ثم احتواء علوم العصر وفـــنونه. ولنـــتذكر دائماً أن المجتمعات التي لا تلتفت إلى "الشريعة الفطرية" المتجلـــية من "القدرة" و"الإرادة"، وإلى "مجموعة" القوانين الإلهية الظاهرة من صفة "الكلام" في الكائنات، وإن الأمم والشعوب التي تتعرض إلى التبدل داخليا في حياتها المعنوية، مصيرها إلى الخذلان غداً، مهما كانت ظاهرةً اليوم. هو ذا التاريخ -وما أشبهه بمقبرة للأمم المنقرضة- يصرخ عاليا بصوت الحقيقة: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَـــيِّرُ مَـــا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) التآكل الروحي والمعنوي في عالم الداخل الذاتي للمجتمع، يوصل إلى انقطاع الأنعم الإلهية عنه. هـــذه الآية الكريمة تذكّرنا بقاعدة مهمة في الظهور والخذلان، أو العز والذل، وتحدد هذا الفراغ الهائل في مسلمي العصر الحاضر.

ولعلـــنا نوجـــز هذا الفراغ بالتآكل الذي أصاب المسلمين جميعاً في بنائهم الداخـــلي من حيث الحياة القلبية والروحية، وتخلفهم بمراحل طويلة عن العصر في بـــنائهم الداخلي، وسواءٌ علينا في الحاصل إن كانت العلة في هذا التآكل أو

التخلف هي الموانع الخارجية المتتالية منذ قرن أو قرنين، أو هي جهلنا وضعفنا وعجـــزنا. لكن الثابت هو أن أمة الإسلام تنـــزف الدم في القرون الأخيرة، وتـــبدو غير مبالية بمصادر قوتها التي بها انتصبت على قدميها وجعلتها في عزها وارثة الأرض حقاً وصدقاً.

أرجوكم التفكر ملياً. هل نجرأ على القول بأن الذين ادّعوا تمثيل الإسلام في مـــرحلة تعيســـة من حياة شعبنا هم أصحاب حياة قلبية وروحية عميقة الغور بمقايـــيس الأوائل؟ وهل نشهد أن مسلمي تلك المرحلة كانوا في توتر وانشداد وحماس من أجل ديمومة نمط الحياة للصحابة الكرام، بله الرغب إلى حياة كحياة الصـــحابة؟ كم وجهاً بهياً نلقى في تلك المرحلة، يختار أن يموت عزيزاً على أن يعيش ذليلاً كما في القول الذي سار مثلاً: إما الدولة في الأمجاد أو الغِربان على الأجســـاد؟[1] وكـــم روحاً منوراً لم يستسلم أبداً لأعدائنا و لم يحد مطلقاً عن استقامة دربه؟

وإن ضعف الإدارة ورجالها خاصة، في تلك المرحلة، يورث حرقة في الفؤاد وغصة في الحلق. فقد عجزنا عن إنقاذ أنفسنا من العيش تحت الوصاية، والقرآن يحـــرم علينـــا الحياة تحت وطأة الوصاية. أننكر أننا نتذلل على أعتاب الظالمين الذيـــن يسحقوننا بتحكمهم؟ وهل نـــزعم بأننا استطعنا أن نستجيب –كما يلـــيق بوارثـــي الأرض– لنداء القرآن بالاستعداد الكامل والتأهب الحذر ضد الأعـــداء الألداء لديننا ووطننا وفكرنا؟ وتذكروا قَسَم الرب الجليل في القرآن

---

١ مثل تركي يضرب لافتداء الرجل بنفسه من أجل غاية عزيزة، وغيره يستفيد. وربما للإصرار على بلوغ المنى بالمنايا، فإما الموت أو الأرب. (المترجم)

الكريم بالخيل ووسائل القتال في "سورة العاديات"، وأمره الجليل أن ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

الصحيح هو أننا ارتكبنا خطأ من أعظم ما لا يغفره التاريخ: ضحينا بالدين في سبيل الدنيا، طمعاً في عمارة دنيانا، وتبنينا فهما يرجح الدنيا على الدين... فوجدنا أنفسنا مذّاك أسرى في شباك "الممتَنِعات"... وضاع الدين وفرّت الدنيا... وعاش هذا العالم المجيد-التعيس، مرحلة التفريغ: رفضٌ لميراث مبارك من ألف عام، وتلبيس على الشعب بمبدأ مصطنع، وتركيب الدولة العظيمة وتصميم بنائها على قاعدة هشة ومتهاوية، وتعريض التاريخ والقوم والأرومة والثقافة الموروثة إلى الازدراء والتزييف، وإلقاء النفس في أحضان أعداء الألف سنة، ثم دس أشد الأفكار إلحاداً بأفحش الألفاظ طراً في جسم الوطن، بل شهدنا انهمار الجوائز والمكافآت على من يزخرف هذه الأفكار بالشعر والنثر، بل السعي لإحياء الشيوعية في العواطف والأفكار والأخلاق في عالم المسحوقين والضعفاء والمظلومين.

وكما يتدرع أحيانا نفرٌ من المصابين بداء الإلحاد، العاجزين والشاكّين حتى في أنفسهم، بدرع أيديولوجية سياسية ورجال ومفاهيم ممنوعة عن المس -وهم يلجأون اليوم خاصة إلى أقبح هذه الأساليب وأخزاها- لمهاجمة الدين وإلصاق الـــتهم بالمقدسات، فإني أذكر زمانا كان أمثال هؤلاء التعساء يقيئون حقدهم وكـــرههم وغيظهم، ويناضلون نضال المستميت لكبح صوت الدين والمسلم، أيــــام رواج الشيوعية والاشتراكية، متكئين على نظم لا أنساب لها. وما أجمل أبيات شاعر النشيد الوطني وأمل الاستقلال الذي صار نشيده أسطورة تروي

انبعاث الشعب من جديد، في تصويره – بالضد– هذه المرحلة المظلمة، إذ يُرتقب فيه المسلم والإسلام ويقتفى أثره، ليقتل وتُطفأ شعلته وتُفسد طبائعه:

قد انسلخ الحياء وانحسر، فالعار ملء البوادي والقفار

كم وجهٍ قبيح لم نعرفه اختفى خلف رقيق الستار

فلا وفاء، والعهد عدم، والأمانة لفظ بلا مدلول

والكذب رائج، والخيانة ملتزمة في كل حال، والحق في المجهول

العقل مرتعب جزع، يا رب: كم رهيب هذا الانقلاب

ضاع الدين والإيمان، فالدين خراب والإيمان تراب.[1]

أبيات مفعمة بحسرة وانكسار تقصم ظهر الشاعر. لكن هذا التسلط القهري والكفري والمزاجي، طوال هذه السنين، عجز عن الاستحواذ تماماً على إرادة هذا الشعب الأصيل، ولم يطفئ أبداً شعلة أفكاره، ذات البُعد الأزلي والأبدي. إن هذه الأفكار صارت حسب الظروف جمرة تحت الرماد، أو شرارة تقدح وتندلع ناراً بحركة طفيفة، أو مصدراً للنور كافياً لإضاءة الدنيا. لكنها، بعوامل التدبير والتمكين الجاذبة نحو المركز، انكمشت في جوف نواة، وتقلصت، فاستطاعت أن تجتاز أعظم محن العصر لتصل إلى الجيل القادر على أداء العمل، في انتظار أن تغمر الأرض كلها بالنور.

---

١ من ديوان "الصفحات" للشاعر محمد عاكف، ص ٤٢٠، وهذه ترجمة من التركية. (المترجم)

من الممكن أن نقيّم سنين التيه الطويلة بمقياس عذابٍ متجرعٍ وجهدٍ مبذول... فلنسعَ مرة أخرى في إثبات أننا وارثو الأرض الحقيقيون بفهم الإسلام، مصدرنا الكافي لانبعاثنا المادي والمعنوي، كما هو في أصله، ثم بالانخراط في جموع عباد الله الصالحين: السالمين المتينين عاطفة وفكراً وحساً وشعوراً وإرادة، الثابتين القائمين على إعلاء كلمة الله، المنظّمين في حياتهم العلمية... الموثوقين في سلوكيات العمل، المستقرين في شخصياتهم، القادرين على دحر نوازعهم النفسانية، الموفقين إلى ارتفاق القلب والعقل.

فلعلنا نواصل المسير في هذا التوجه المفقود والخط المضيّع، بتوفيق الله تعالى ومشيئته.

أثناء استكشافنا خط السير

تعــرض الإسلام منذ حرماننا من إرث الأرض إلى معاملة يتفطر لها القلب في برزخ ضعف المنتسبين إليه وتعدي خصومه وعدم إنصافهم. وليس مستغرباً أن يكون الظلم والغدر شعار الطرف الآخر، لكن ضعف المسلم لا يحتمل ولا يطاق. ولعل رسول الله ﷺ يشير إلى هذا، حين يستعيذ بالله من جلادة الفاجر وعجز المتقي.

لا ينكر أن اهتزاز الفكر المسلم والمنطق المسلم، وتباطؤهما، وجمودهما، بل تكدرهما وفسادهما، قد أبعد المسلمين عن الصراط المستقيم ذي الهدف القرآني والفَلَــك النــبوي... وحجّب ضوء الشمس عن عالمية الإسلام، وعطل أداء وظيفة الدين المحيط بالعالم. ويبدو واضحاً أن إزالة واقعة الانحراف هذه، المزمنة والمســتقرة بهــذه الدرجة المشهودة في مسلمي القرون الأخيرة، وفي المرشدين المســلمين خاصــة، لن يتحقق بافتتاح بضع مدارس، أو عقد بضع مؤتمرات وندوات، ولا بمواعظ ونصائح مسكينة.

إن إزالــة هذا الانحراف الهرِم، المادّ جذوره إلى عصور خلت، المُمَدّ بالعلم والتكنولوجــيا في عصرنا، بحاجة إلى اكتشاف أنفسنا من جديد، والعثور على ذاتنا، وتعرّفنا كرة أخرى على الشعور الإسلامي، والمنطق الإسلامي، وأسلوب

محاكمته العقلية...[1] وإلى حَمِيّة طويلة وهمة أصيلة وزمان كاف وصبر غير نافد وأمــل حــيوي وإرادة صلبة وتأنٍ بعد تأنٍ. وبخلاف هذا، إن لم نجد أسلوبنا الذاتي، و لم نبرح تخبطنا في البحث عن سبل الخروج من الحفرة التي سقطنا فيها انطلاقــا من مواقع ليست التي وقعنا فيها، فإننا نخدع أنفسنا ونعرض الأجيال القابلة إلى الانكسار مرة أخرى.

لذلــك، لا مناص من إحياء الفكر الإسلامي والتصور الإسلامي من أجل الاقــتراب من الوجود والحوادث بسياق إسلامي، وتقييم الأشياء كلها بمنطق إسلامي. ويلزم لذلك أولاً: الاستشعار، فالتعقل، بالكائنات والإنسان والحياة بمعلومات سليمة، مناسبة لنفس الأمر، ثابتة المحور في مبدئها وغايتها، متساندة بعضــها مع بعض، منفتحة الأجزاء فيما بينها، فكأنها نغم مسبوك من أصوات متنوعة بأسلوب واحد تعبيراً عن طابع معين، أو نقش مركزي تحيط به نقوش أخرى لا بد لها من روابط معنوية تشدها إلى المركز... وثانياً: أن يقود العقل والمحاكمــة إلى تفهم المناسبات بكلية وجمعية في عموم الأشياء وعموم الوقائع المعروضــة لمطالعتــنا، بمعانٍ ومحتويات وحكم مشحونة ملء الدنيا، ككتاب لمــنظومة حكمة فائضة... أو كأثر فني يعكس ملايين الألوان للشؤون الإلهية فيغرق العيون ببريقه وتلألئه، وبرؤية وبصيرة ثاقبة تبصر من خلال الجزئيات ما وراء ســتار الكلــيات، مــن غير أن تتعثر بحوادث جزئية ومنفردة منها، وفي الكلــيات: الامتداد منها إلى أبعد تجمعات الجزئيات والتفرعات. ذلك، كيلا

---

١ المقصود من المحاكمة أينما وردت هي المحاكمة العقلية المنطقية بتمحيص المسألة وفحص الأدلة وإجراء القياس وإعمال الاستنباط لاستحصال النتيجة. (المترجم)

يـــنقض، أو يُـــذوي، أو يضاد، قسم من جهدنا لقسم آخر منه، أو جزء من فكرنا لجزء آخر، أو مدة من زماننا لمدة أخرى.

ولا ينبغي أن يظن بهذا الكلام أننا لا ندعو إلى التخصص أو التفرع. فالخير في أن يتخصـــص أمرؤ في فرع من الفروع، ثم يرتقي إلى ذروة عرش الكمال فـــيه، ويسعى إلى نيل أرقى المنى في تلك الساحة... لكن مع العناية بمعنى الكل ومحتواه وحاله، بل بمقصده وغايته، في أثناء سعيه وجده. ولابد أن يتحقق هذا، ســـواء بالشـــعور التضامني المشترك، أو بسائق العلم والحس، أو بعمل منسق متكامل، أو بالدهاء العقلي. فلا شبهة ولا شك في حاجتنا الماسة إلى هذا النظر الكلي والشمولي، والتقييم العمومي والموضوعي.

نعم، الحاجة ماسة في أيامنا إلى عقلٍ موضوعي يتصور الأمس واليوم معاً، قـــادرٍ عـــلى التمعن في الكائنات والإنسان والحياة دفعة واحدة، موهوبٍ في المقايســـة والمقارنة، منفتحٍ على بُعد أسباب الوجود وعلله، محيطٍ بظهور الأمم والجماعات واضمحلالها، حَكَمٍ فيما يغلط فيه علم الاجتماع وعلم النفس أو يصيب، رقيبٍ على تحول أحوال الحضارات بالولادة والموت والتقهقر، مقتدرٍ في التميـــيز بين الغاية والوسيلة، مالكٍ لسلامة الوجدان واستقامة الفكر، محترمٍ للمقصـــد، خبيرٍ بحكمة التشريع ومراد صاحب الشريعة، عالمٍ بالأسس المحضة لأحكام الدين، مُستَقْبِلٍ للواردات الإلهية.

إن جُنْد الإدراك الذين يؤدون وظائف مثل فتح الآفاق أمام نظامنا الفكري المـــنغلق... ويشغّلون تبلّدنا في المحاكمة العقلية المتقادمة المبتعدة عن السماوية بتدويرها في الفَلَك القرآني... ولا يغفلون أثناء ذلك عن المناسبة المفعمة بالسر

بــين الكائنات والإنسان والحياة... ويمثلون أنموذجا للدين يجسد إحياء الأوامر الدينية وتحقيقها بحرص بالغ، إلى جانب مراعاقم أصلاً مهما من أصول الدوام والتمادي في السبل المسلوكة، وهو التوافق مع آفاق صاحب الشريعة في التيسير والمواءمة والمسامحة، حتى تكون سمته فيضان التبشير وترك التنفير... وإنهاء العقم المزمن منذ قرون بتسليم قوة العلم والتفكر لإمرة الإسلام وتفسيره... وتحويل كــل مكــان، مدرسةً أم معبداً، شارعاً أم مسكناً، إلى مراصد ترصد الحقيقة الكامــنة خلــف الوجود والحياة والإنسان... وتشغيل منافذ الرؤية المتأملة في اللانهايــة، والــتي يمتد زمان تعطلها إلى قرون، بل إلى ردح أبعد من قرون... وتقــديم أجــندة حضــور الإسلام في مراتب النظر دوماً وفي وحدات الحياة كــلها... وتحكــيم الحساسية في قضية السبب والنتيجة حسب مبدأ تناسب العلّــية، والتصرف الرياضي والعقلاني... هؤلاء، هم مَن يعينوننا في التجدد، ويعلّموننا أركان الحضور والوجود الدائم الأبدي.

وقــد يســتنكر ويكره بعضهم هذا الاهتمام بالأسباب الموفي إلى مباهاتها بنفسها وسوء أدبها. وأنا أشارك في هذا الذهاب والتوجس شيئاً ما. ينبغي على الإنسان أن يقوم بوظيفته وواجبه، ولا يتدخل في لوازم شأن الربوبية. الوظيفة مسؤولية تقع علينا، والتوسل بالأسباب هو مراجعة في حكم الدعوات المرفوعة إلى أبواب الحق تعالى. إن قبول هذه المسألة على هذا الوجه من لوازم الصفات الإلهية الجليلة وأننا مخلوقون وهو الخالق. لكن الوجه الآخر للمسألة هو: أن الله تعــالى قد أمر بقبول شيءٍ يرجع إلينا، شبيهٍ بأمرٍ اعتباري،[1] كداعية إلى إرادته

---

[1] المقصود هنا هو الإرادة الجزئية الموكلة إلى الإنسان. وهو أمر اعتباري لا وجود له خارج العقل. (المترجم)

ومشيئته، وجعل لها أهمية، ووعد بتحقيق أعظم الأعمال بناء على هذا المخطط، وحققهـــا... وقـــد خلق هذا الشيء الاعتباري وسيلة للإثم والثواب، وجعله أساساً للجزاء عقاباً ومكافأة، وقَبله فاعلاً في إسناد الخير والشر... ومع أن هذا الأمـــر الاعتباري ليس مُعَبّراً عن أي قيمة في ذاته، لكنه سبحانه وتعالى أرجع إليه -باعتبار النتائج المترتبة عليه- قيَما فوق قيَم. ولو لم يكن كذلك، لتوقفت الحياة تماماً، وسقط الإنسان إلى درك الجماد، وبطل التكليف وذهب كل شيء انجراراً إلى العبث. فلا بد من إيلاء الاهتمام به، ومراعاة متطلباته. فإن الله تعالى يُظهـــر بُعـــدا خفـــيا من أسرار قدرته بجعل ذلك شرطاً عاديا في إعمار الدنيا والعقـــبى، ووســـيلة مرعية وشبيهة بزر سحري لعملية كهربية تضيء العوالم، فيوجد بحراً في قطرة، وشمساً في ذرة وعالما في عدم من عدم.

إن حكـــم الأســـباب أو أي شيء آخر لا يجري على الله تعالى، ولا يقيّد إرادتـــه ومشـــيئته الإلهية. الله يحكم كل شيء. الله هو الحاكم الأحد المطلق. ومراعاة الأسباب وَعَدُّ العلل وسائل صغيرة ليس إلاّ بأمر الله تعالى. فنؤمن بهذا الاعتـــبار بـــأن الإنسان سيعاقَب إن خالف الشريعة الفطرية المعروفة بسُنّة الله عقاباً معظمُه في الدنيا وقسمُ منه في الآخرة.

وما أحكم جواب الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "نفرّ من قدر الله إلى قدر الله"،[1] حينما استشكل تأليف امتناعه عن دخول مدينة انتشر فيها الوباء مع الرضا بالقضاء والتسليم للقدر!

---

[1] البخاري، الطب، ٣٠؛ مسلم، السلام، ٩٨

فالأصل أن برمجة الجهود والعمل الحركي[1] حسب النتيجة، وتحويلها إلى غاية المنى، والوقوع تحت عبئها، يورث قلقاً وعذاباً، ويبعد عن توقير الله تعالى - حاشاه - وكأنها عملية مساومة معه. وإن تعطيل الإرادة والاختيار، وانتظار النتيجة بسلسلة من الخوارق في عالم لا يأبه بالمعتاد هو قناع للأحلام والمسكنة. ألا ينذرنا القرآن الكريم مراراً وتكراراً ﴿جزاءً بمَا كانُوا يعمَلُونَ﴾ ﴿جَزاءً بما كانوا يَكسِبُونَ﴾ وأن ما يلقاه الإنسان من خير وشر هو بعمله وفعله وتصرفه؟ ألا يُعلمنا أعظم أنموذج لموازنة القلب والعقل والوجدان وصورة فخر الإنسانية وسيد الأنام ﷺ، بالارتباط الوثيق والتناسب الخفي بين السبب والنتيجة والعلة والمعلول والسعي والثمرة حينما يذكرنا قائلا: "لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم".[2]

إن الإسلام، إذ ينظم بالكتاب والسنة حياة الدنيا والعقبى للمؤمن، وحال اعتقاده وعمله، وكيفية عبادته وأخلاقه، يهمس في الوقت نفسه من خلال الأسطر بأشياء أخرى من عالم الامتداد إلى الأبعاد، في أذن دنيا الإنسان الروحية والعقلية والقلبية والوجدانية والحسية، مولِّداً في أغوار ذاته أنساماً أخروية ومشاعر لاهوتية التلون، ليحييه في كل آن مرة أخرى في بُعد آخر. يحييه، ليجد الإنسان نفسه في موقع خلافة الله تعالى، وحال المداخلة في

---

١ يستعمل المؤلف كلمة (Action) ويعني بها القضية والدعوة والرسالة والتأثير. وقد ترجمناها حيثما وردت إلى "العمل الحركي". وأرجو ملاحظة الجمع بين هذه المعاني في الذهن كلما وردت. (المترجم)

٢ الترمذي، كتاب صفة القيامة.

الأشياء، ومقام الفهم والاستقراء لأسرار سنة الله. ثم يرى ويستشعر في كتاب الكائنات النابع من مصدر الإرادة والمشيئة، وبيانه المبين المترشح من نبع كلامه تعـــالى، كأنهما وجهان لواحد... ويوازن تصوّره وفكره، وحياته وتصرفاته، وملاحظات دنياه وأخراه، بالموازنة التي في الأرض والسماء.

نعـــم، إن الإســـلام طرح عناصر منسوجاته المهمة على العقل والوجدان والـــروح والجسد، فغزل ذاك القماش الزاهي ذا البعد الدنيوي والعقبوي الغائر في الأعمـــاق. ولئن تقدم واحد منهم على غيره في مستوى معين أحياناً، فليس في قدرة أي منهم أن يصور الإسلام وحده أو يمثله أو يُعبّر عنه.

مـــن الممكـــن أن ينتقل الإسلام الذي هو أعمّ عطية من الخالق للكل، إلى منظومة فعالة بواسطة إحسان آخر مما يُعدّ من أوائل إحساناته، وهو الفهرست المعنوي للوجود كله، المتشكل من العقل والوجدان والروح والجسد واللطائف. وسوف نشرح هذه المسألة في موضعها.

نحو عالم الغد

لم يـــبرح العالم الإسلامي منذ قرون، الدوران في دائرة مفرغة حائمة حول أغلاطهـــا من غير أن تجد جوهر ذاتها وروحها. فإن تقدمت خطوة إلى الأمام، أعقبتها بتراجع خطوات إلى الوراء أو انحرافات عن سواء السبيل. بل كثيراً ما خلـــف هذا السير المشؤوم أو الانحراف اللعين الذي طغت خطاياه على صوابه وأغرقـــت أضراره فوائده، آثاراً غير محمودة على الجهود الذاتية الاجتماعية في تحري سبل العودة إلى الذات، فعرّضت الأعمال الطيبة ورجالها إلى التزلزل من الأعماق. هذه الحال تدل على أن عقد الخرز قد انفرط في العالم، وأن دولاب الدول والشعوب يدور خلاف مصالحها.

لذلك، نؤمن بضرورة توجيه العالم الإسلامي جميعاً إلى التجدد بكل أجزائه في فهـــم الإيمـــان، وتلقيات الإسلام،[1] وشعور الإحسان، والعشق والشوق، والمـــنطق، وطريقة التفكير، وأسلوب الإفادة عن نفسه، بمؤسساته ونظمه التي تكسبه هذه الأحوال.

إن أساس حياتنا المعنوية قائمة على الفكر الديني والتصورات الدينية. ولقد حافظنا على وجودنا حتى اليوم بهذا الأساس، وكانت وثباتنا أيضاً منطلقة منه. فـــإن جردنا أنفسنا منه، فسوف نجد أنفسنا متخلفين ألف سنة إلى الوراء. إن

---

١ المقصود من تلقيات الإسلام أو متلقياته: طبيعة فهمه وتداعياته في الإنسان ونوع التصورات بشأنه. (المترجم)

الدين الذي يهدف إلى غايات مثل إضفاء المعنى على الإنسان والكائنات، والانفتاح على الروح الإنسانية والذات، وتحقيق الرغبات الممتدة إلى ما وراء الدُّنى، وإشباع حس الأبد في الوجدان... ليس منحصراً على العبادات. إنه يحتضن الحياة الفردية والاجتماعية جميعاً... ويتدخل في كل شيء لنا: عقلي وروحي وقلبي... ويصبغ بصبغته كل تصرف لنا حسب نيتنا، ويسربل بلونه كل شيء.

نعم، كل تصرف للمؤمن الحق قائم على محور العبادة، وكل جهد له ذو بُعد جهادي، وكل حملة وجهد له متلون بالعقبى والرضا. فلا محل في حياته للفصل بين الدنيا والعقبى... ولا برزخ بين قلبه وعقله... وعواطفه ومنطقه مزيج واحد... ولا تتناكر محاكمته العقلية مع إلهاماته. كذا، التجربة والخبرة في عالم فكره سُلّمٌ من النور يتصل بالعقل، والعلم برج عال بحسابات الفراسة. فهو نسر يحلق إلى اللانهاية دوماً بأجنحة العشق العملاقة في هذا السُّلّم، وحلاجٌ يندف قطن الوجود ندفاً بفطنته في هذا البرج. وحيث لا فراغ في أي زاوية من زوايا هذا الفهم، فلا كلام عن إهمال الإنسان الفردي أو الاجتماعي في هذه المنظومة.

والذين يختلقون صداماً بين الدين وبين العلم والمحاكمة العقلية، هم بؤساء جهلوا روح الدين والعقل. أما إلقاء مسؤولية الصراع بين الفئات الاجتماعية المتنوعة على كاهل الدين، فهو سقوط مريع في الانخداع. لأن الصراع بين التكتلات نابع من الجهل والمنافع الشخصية والمصالح الفئوية. والدين لا يؤيد مثل هذه العواطف والأفكار. ونشهد في الواقع صداماً وصراعاً بين قسم من

المتدينين أيضاً. هذا يرجع إلى أن هؤلاء الحاملين لنفس الجذوة الروحية لم يبلغوا الدرجة اللازمة في صدق الإيمان وحفظ الإخلاص... وربما يندحرون أمام عواطفهم أحيانا... لأن الفضيلة المؤمنة تقطع الطريق عن هذا البؤس. والواقع أن سبيل النجاة الوحيد من السقوط في هذا البؤس هو إحياء منظومات الدين كلها وجعلها دم المجتمع ولحمه.

إن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى "بعث ما بعد الموت"، وإصلاح جاد في ملكاته العقلية والروحية والفكرية، وبإفادة دافئة، إلى "إحياء"... إحياء يستجيب لمتطلبات أصناف البشر كلهم ويحتضن الحياة كلها، في كل زمان ومكان، بقدر السعة والعالمية التي تعد بها مرونة النصوص، ضمن الجد والجهد للحفاظ على صفاء أصل الدين.

لقد سمح هذا النظام المبارك منذ أن شعرنا بظله فوق رؤوسنا – أدام الله حفظه علينا إلى الأبد– بفسحة للولوج من بابه مراراً إلى التجديد والإصلاح، فشهدنا الانبعاث مراراً. المذاهب عموماً وفي الأكثر تمثّل التجديد في الفقه والحقوق. وصارت الطرق الصوفية سبلاً رئيسة تزيّن مسالك القلب والروح. وانشغلت الكتاتيب والمدارس عموماً –يوم أن كانت لنا– بإضفاء المعنى للوجود والكائنات. أما التجديد والانبعاث المأمول في الحاضر، فيتحقق بالتوفيق بين كل ما ذكرناه وحشدها جمعاً في مجمع واحد. ويعني هذا، الانسلاخ من القالب إلى اللب، وترك الشكلية والتوجه إلى الجوهر والروح، في كل مسألة. ويعني أيضاً التوجّه إلى اليقين في الإيمان، وإلى الإخلاص في العمل، وإلى الإحسان في الحس والفكر...

نعـــم، ينبغي أن تكون "الكمية" تامة و"النوعية" هدفاً في العبادات، والكلمات وســيلة والــروح والصـــدق أساساً في الدعوات، والسنة مرشدة في التصرفات، والشـــعور لازما. وفي كل هذه: الله غاية القصد... الصلاة ليست قياماً وقعودا... ولا الزكاة مالاً مطروحاً تبرئة للذمة لا يعلم أين ذهابه... ولئن صار الصيام جوعاً وعطشـــا، فمـــا اختلافه عن الحِمْية؟ والحج إن لم يجرِ في فَلَكه، فما اختلافه عن ســياحة بــين مدينة وأخرى تكسب بعضهم عملاتٍ أجنبية؟ والعبادات قد تصير كلعب الأطفال إن انحصرت في الكم... وصيحات الأدعية الخاوية من الروح شغل الباحث عن عمل الحلوق... والحج والعمرة إن صارت مشقة تُحتمل للتسلي بحمل لقب "الحاج" ومناقب الحج، فسوف نخرج في المعاني والمرامي...

إن سبيل الخلاص من كل من هذا الاضمحلال هدراً في شِباك السلبيات، هـــو مـــلء فراغاتنا، وإعلان النفير العام الذي يزيل ضعفنا وينقذنا من عبودية الجســـم والـــبدن. وإذ ينقذنا، يجهز أطباء الروح والمعنى الذين يقودون القلب والروح إلى مستوى الحياة... أطباء منفتحة قلوبهم في الروح والمعنى، منطلقون في ساحات العلم والذكاء والعرفان والواردات والفيوضات كلها، من الفيزياء إلى الميتافيزيقا، ومن الرياضيات إلى الأخلاق، ومن الفنون الجميلة إلى التصوف، ومـــن الكيمياء إلى الروحانية، ومن الفضائيات إلى الأنفسية، ومن الحقوق إلى الفقـــه، ومن السياسة إلى السير والسلوك. إن هذا الشعب ليس بحاجة إلى هذا وذاك، بل إلى مثل هذا العقل. وكما يلتقي العقل ويحاور كل جهة بعيدة وقريبة في الـــبدن عبر الأعصاب، ويرسل الرسائل إلى أقصى نقاطه ويستلم منها، فإن فـــريق العقـــل هذا سيكون في تعاط مع جميع حجرات بدن الشعب وجزيئاته

ويصـــل إلى جمـــيع الوحـــدات في المجتمع، ويضع يد تصرفه في جميع أجزائه الحـــيوية... ويهمس في أذن كل صنف شيئاً من الروح ومن المعنى، مقبلاً من الماضي ومكتسباً عمقا أشد غورا في الحاضر، وممتداً إلى الآتي.

هـــذا الفريق يسع الجميع. يحتضن الطفل الملتزم والمؤدب في المدارس، كما يحتضـــن أبناء الوطن السائبين وغير المنضبطين في الأزقة. ويُفرغ في كل صدر إلهامـــات روحـــه، ويُعِدّهم لفائدة المجتمع دهاة مؤهلين بعلوم الغد ومهاراته، ويـــرفع كـــل إنسان وكل شريحة إلى الكمالات الإنسانية بالتطهر من لوثات العصـــر في صفاء مآوي النور ومجمّعات إقامة الطلاب وبيوت الطلبة والمدارس والجامعات والمعابد والتكايا...

هذا الفريق يؤنس وحشية الصحف والمجلات والراديو والتلفزيون ووسائل الإعـــلام القوية، ليجعلها صوتاً ونَفَساً للدين والملّة من وجهة، ويرشد بها من وجهـــة أخـــرى الأحاسيس السوداء والأفكار القاتمة والأصوات المدلهمة، إلى سبيل الصيرورة الإنسانية.

هذا الفريق ينقذ التربية والتعليم المتغيرة صورة وتوجهاً كل يوم تحت وطأة الضغوط الخارجية والانحرافات الداخلية، من وصاية الأفكار الدخيلة، فينظمها بصـــورة طـــيّعة لمتطلبات الحاضر وحسب السياق التاريخي، ويرفعها لتكون مؤسسة ذات رسالة ببرنامجها وخطتها وأسلوبها.

بفضـــل ذلـــك، ترتقي الأمة من الفقر الحسي والفكري، والحفظ الببغائي والشـــكلية، إلى الفكر العلمي الحق، ومن تزكية أنواع الرذائل باسم الفن، إلى الفـــن والجمـــال الحق، ومن العادة والإدمان المجهول نشأة ونسباً، إلى الشعور

الأخلاقـــي الـــنابع من الدين والتاريخ، ومن أقفال الأفكار المتنوعة القابعة في صدورنا والتي أضنتنا وأنهكتنا، إلى واحدية الخدمة ، التسليم، الشعور، التوكل.

لنضع جانبا بلبلة التكوينات الجديدة في العالم. نحن لا نصدّق بولادة شيء جديد من الهندام الرأسمالي القديم، أو أحلام الشيوعية، أو تكسيراتها الاشتراكية، أو هجين الديمقراطية الاجتماعية، أو خرق الليبرالية البالية. الحقيقة هي أنه إن كـــان ثَمّ عالَمٌ مشرّعُ الأبواب لنظام عالمي جديد، فهو عالمنا نحن. وسيتناوله الجيل القادم على أنه عصر نهضتنا نحن.

هذه الولادة الجديدة، ستُكسب عالم مشاعرنا وأفكارنا، كذلك مفاهيم فننا وجمالـــنا، أعماقـــاً مختلفة اختلافاً شاسعاً عما عليها الآن. وفي ظله سنكتشف أذواقنا البديعة ونصل إلى موسيقانا، ونعثر على رومانسيتنا... ويستقر شعبنا في حـــرز مصان ومتين من كل جهة، سواء في العلم والفن، أو الفكر والأخلاق، فنضمن مستقبله.

شعارنا في هذا المضمار النفير والإقدام، ومصدر قوتنا الإيمان والحقيقة. لقد أخفق دوماً الذين داروا بنا على الأبواب الأخرى على أمل الشفاء من الأدواء بـــالانفلات من الإيمان ومن الأخلاق. ولقد نلنا نحن الشرف، وبقينا شرفاء، بفضـــل الله الـــذي ارتبطت قلوبنا به، وفي ظل تسليمنا وانتمائنا إلى أمتنا التي رجحـــناها عـــلى كل شيء دنيوي وبلادنا التي وُجِدنا في صدرها ونشأنا في حضنها. ولا أظن بأنني في حاجة إلى شرح الواقع بعكس الحال!

وسنتابع في فصل آخر مواضيع في الانبعاث من جديد.

نحو عالمنا الذاتي

لقـــد تكـــرر الكلام كثيراً عن دعاوى البناء من جديد في عهود وأزمان متعددة وبلاد متنوعة من الأرض وبعناوين مختلفة. ويبقى صدق هذه الدعاوى قابلاً للأخذ والرد ومفتوحاً للنقاش في كل وقت. لكن هنالك عالمٌ يوفي عملية البناء حقها... باحتواء الوجود والأسرار خلف ستار الوجود، والإنسان والحياة جمعـــاً، حرٌ وطليق من كل القيود المذكورة آنفاً. إن هذا العالم، وباعتبار الأمد الطويل خاصة، هو عالمنا ودنيانا.

ومـــا زالـــت الأرض بعـــد الدوار الطويل والتزلزل الشديد، ورغم أنف الأشـــياء، قادرة على تحقيق هذا التكوين في الحاضر، ومالكة لطاقة تحقق بعثاً جديداً بعد الموت! وإن أمتنا تمتلك تراكماً علمياً تجعلها قادرة على الريادة فيما حولهـــا مـــن التكوينات الجديدة. وزد على ذلك أن قيادتها للأمم آماداً مديدة تركـــت فرصاً مكتسبة من القبول الكامن تحت الشعور في الشعوب المنقادة لها منذ الزمن الغابر، وهي مقتدرة على استعمالها اليوم. بلى، إنها جاهزة تماماً من وجهـــة الرمز والتمثيل، لكن عليها أن تستعمل المحركات التاريخية التي تُعد دم هذا الماضي العظيم العريق ولحمه، استعمالاً سليماً وصحيحاً.

كان عالمنا زمناً يسابق العصر في العلوم الطبيعية والدينية، وفي التصوف والمنطق، وفي تخطيط المدن والجمال، وفي كل مجال ومضمار، بدهاة نفشوا الوجود كالخوارزمي والبيروني وابن سينا والزهراوي، وأساتذة الحقوق كأبي

حنيفة والإمام محمد والسرخسي والمرغناني، واستعدادات اجتازت المقاييس الإنسانية وعاشت الحياة في خط الوجدان بتغليب القلب والمنطق كالإمام الغزالي والرازي ومولانا جلال الدين الرومي والشاه النقشبند، وأبطال المحاكمة والفطنة كالإمام الماتريدي والتفتازاني والجرجاني والدواني، وعمالقة الفن كالمعمار خيرالدين والمعمار سنان وعطري وده ده أفندي.. ويمكنه بعد زمن العطل العابر أن يحرّك مجدداً كل الأرواح والأدمغة المنورة، فيحقق النهضة العالمية الثانية أو الثالثة. إن الدنيا تستطيع أن تفتح صفحة جديدة بإدراك أذواق البديعيات الحقيقية من خلال نقش الروح والمعنى في كل مكان، والفن المتحري عن اللانهاية في هذا النقش، المتصف بالأخروية، والمترقق، والمتحد مع الأبعاد، في تجديد الاستماع إلى روح الإسلام ومعناه كما في تفسير الوجود مجدداً، وفي أجواء التصوف اللاهوتية العميقة الغور كما في الميتافيزيقا، وفي المحاسبة والمراقبة الإسلامية كما في التيقظ والتمكين اللذين يكسبان الإنسان قيماً فوق قيَم، وفي المدن وتخطيط المدن الذي يمكّن عالمنا الذاتي من التنفس ويجعل عالمنا الذاتي يتنفسه كما في القيم الجمالية العائدة للجمهور. نعم، تستطيع الدنيا أن تفتح هذه الصفحة الجديدة، بل الصحيح أنها قادرة عليه على الرغم من أنه يبدو عملا غير يسير.

إننا لن نقدر على أن نفتح الصفحة الجديدة من غير انتزاع المُتَلَقَّيات (التصورات) والأفكار المنحرفة السائبة في هذا الوطن منذ سنين وسنين، مثل إضنا الحياة الروحية وإذوائها بدرجة كبيرة، وتعطيل عمل أجوائنا الدينية. ووضع الأقفال على ألسنة القلوب بتنسية الوجد والعشق تماماً، وانحباس المثقفين المفكرين والدارسين في قمقم المادية الوضعية الكثيفة، وإحلال التشدق محل

الصـــلابة والثـــبات في الحق، وحتى في طلب الآخرة والجنة، طلبها بنظر دوام السعادة الدنيوية المعتادة!

ولـــيس المقصود من هذا القول أننا عاجزون عن انتزاع اللوثيات اللاصقة بأرواحـــنا في القرون الأخيرة. بل الإفادة بأن بلوغ برّ الأمان عسير غاية العسر ما لم نتخلص كأمة من أسباب ودواعي انهيارنا وانحلالنا الحقيقية، مثل الحرص والكســل وطلب الشهرة وشهوة السلطة والأنانية والميل إلى الدنيا وغيرها من الأحاســيس والمشــاعر، ونــتوجه إلى الحق بما يُعدّ جوهر الإسلام وحقيقته، كالاســتغناء والجســارة والمحويــة والاهتمام بِهَمّ الآخر والروحانية والربانية، ونُصفّى بمشاعر الحق ونصب في قالبه. لكن العسر الشديد لا يعني المحال. فما لم تخــل الساحة - وهي ليست خالية - من شجعان مخلصين للجوهر والذات، مــالكين لإرادة التجديد، قادرين على احتضان العصر، فلابد أن يتحقق هذا التجدد والتغير ... تجدد وتغير ذو أبعاد قرآنية وسجايا فطرية... يتحقق بوتيرة تُعجــز الذيــن يصرون على حبس أنفسهم خشية الانفتاح على هذا الفهم أو يصــرون عــلى الانغلاق، تعجزهم عن صد التيار. فإن النهضات العالمية التي عرفــناها وعلمــنا بها حتى اليوم، كانت ثمرة سعي الدهاء الفردي، لا حملات الكتل البشرية وحركاتها... فقد كانت التجديدات والتغييرات التي بلغت حد الانفجــار أحــيانا في السنوات المتعاقبة بعد ظهور الإسلام، من آثار عدد من الأرواح الفذة والعقول الذكية الاستثنائية والأفكار الممتازة التي سمقت في العهد الأموي والعباسي، كما كانت الفكرة الغائرة العمق والروح المتعمقة والفطرة الــبراقة خلف التحرك والتكون "عن المركز" في العهد الإيلخاني والقره خاني

والسلجوقي والعثماني. إن المسلك الذي افتتحه هؤلاء الرواد الذين ظهروا بمعنوية عالية في كل مرحلة من المراحل، تحول بعد لأيٍ ومدةٍ إلى مدارس وتيارات تنفخ روح البناء من جديد في الكتل البشرية. فتابع من سار خلفهم طريق أولئك المرشدين الأرواح وتعقبوا درب أفكارهم، وانحشرت الحشود على أثرهم ولجأوا إلى إقليم ضيائهم. فعاش هؤلاء المرشدون العظام مع الحشود وكأنهم القلب والدم منهم. أما في مراحل أفول الأدمغة العظيمة هذه، وغياب مَن يشغل فراغهم من بعدهم، فإن الذهول وتفحم الفكر وعقم التجديد أصاب المجتمع بكل أصنافه وطبقاته.

وفي هذه الأثناء، إذ تتحول الأيام إلى الربيع، ويتنع الفجر فجراً، ينتعش أملنا وانتظارنا. فندعو ربنا تعالى أن يهبنا إرادة مؤيدة بالمشيئة نعيسا في إقامة صرح روحنا، وجعل قلوبنا خضراء كربوع الجنة، وإيصال ألبابنا إلى أسرار حرم الألوهية، وأن يُلهم شعبنا طريق التجدد في خط السير المحمدي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

إن سعينا لتحقيق هذا الأمل وانتظارنا له هو حقنا وواجبنا وضرورة إيماننا. ومن اللوازم أثناء استعمال حقنا والإيفاء بواجبنا أن نراجع ماضينا المجيد باستمرار، ونلجأ إلى قيمنا التي جعلت أمسنا زاخراً بالعظمة. فعندما حقق الغرب نهضة كهذه في مسيره نحو المدنية الحاضرة، التجأ إلى المسيحية واتخذ اليونانية مثلاً وتزاوج مع الرومانية. أشباه هذه الأسس مقبولة للحضارات الأخرى في كل زمان. إذن سنلجأ نحن أيضاً إلى ماضينا وجذور معانينا ونقتبس من مثلنا الروحية التي لم يتكدر صفاؤها بتعاقب الزمان. وسنأخذ من

إبداعات عصورنا البيضاء التي نراها شريحتنا الزمنية الذهبية ومصدر فخرنا الأبدي، في الفكر الفلسفي كما في الحقيقة الصوفية، وفي طبيعة متلقيات الدين المستقرة كما في بعده الأخلاقي، ونـــزيد بغزل النقوش على أردية مرفلة تسربل المستقبل. في هذه النقوش يتجاور مولانا جلال الدين الرومي مع التفتازاني، ويسجد يونس أمْرَهْ مع مخدوم قولي، ويضم "فضولي" إلى صدره "عاكف". ويقف الأمير اولوغ تحية لأبي حنيفة، ويجلس الخواجة الدهّاني قبالة الإمام الغزالي، ويلقي إبن عربي وردة على إبن سينا، ويفيض الإمام الرباني السرهندي ببشرى بديع الزمان النورسي... يتوحد عماليق الأفكار لهذا الماضي المارد العظيم بقاماتهم العملاقة، فيهمسون في آذاننا طلاسم الخلاص والانبعاث.

المأمول أن نكتشف الشعور والفكر والمنهج والفلسفة التي تجمع كل هذه، وأن نجـــد أســـلوبنا السماوي والخالد. من أجل ذلك، أرى أن نعيد النظر في طرقـــنا الـــتي نسلكها قبل كل شيء، وأن نجدد إعمارها. فمن الأسس المهمة لنهضـــتنا إلهام العشق والشوق وبَركتهما، والمتانة والرصانة التي توحي بأمان العقـــل والمـــنطق، واستقرار وإنسانية الحرية والعودة إلى الذات، وبُعد التعمق والدقة والتجريد، ومحور المنطق، وروح الوحي في فننا وفلسفتنا. ومن ضمانات الثبات على النهج الصحيح في التجدد أن نجعل رضا الله غاية الآمال، والروح أساســـاً للحركـــية في جهود الشعور بالواجب، وحب الإنسان وهذا الوطن حرصاً لا يستغنى عنه، والأخلاقية زاداً حيوياً في المسير لا يترك أبداً، والكائنات والإنســـان والحياة: كتابا محفوفاً بالأسرار لا يُكفُ عن نبشه فصلاً بعد فصل تحـــت منشور القرآن البلوري، ومصدراً للقوة مهماً لشخصية الإنسان وقيمه

البشـــرية الحقيقـــية، والقرآن والسنة محوراً للطريق الموصل إلى الهدف والغاية، متناسباً مع حقانية الهدف والغاية ومُقَدَّسّيته.

وإن أمـــوراً يمكن أن نسميها بوصفة طبية لخلاصنا، مثل: أن نجعل وطننا وإنســـاننا مقصودنا ونجهد في تغيير مصيرنا المعكوس، ونحيي أجسادنا بالروح المتشـــكل من عجين بمجتمعنا، ونفتح صفحة تاريخية نقية وجديرة لشعبنا، هي شـــيء من الأسس لحضارة تفوق المدن الفاضلة ورؤيا التجدد. وسنعرض هذه الأسس بشيء من التفصيل في فصل يأتي.

ونحن نقيم صرح الروح...

سبق أن أشرنا إلى صفات "ورثة الأرض" إجمالاً. ونريد الآن أن نتفسح في ملامحها بشيء أكثر تفصيلاً:

الوصـــف الأول لـــوارث الأرض هـــو الإيمان الكامل. يحدد القرآن الكريم "الإيمان بالله" غاية لخلق الإنسان في أفق المعرفة وروح المحبة وبُعدِ العشق والشوق وتلوّن الخطوط الروحانية. والإنسان مكلّف ببناء عالمه الإيماني والتفكري حيناً بمد الدروب من ذاته إلى أعماق الوجود، وحينا بالتقاط شرائح من الوجود وتقييمها في ذاتـــه. ويعـــني هذا في الوقت عينه ظهور الحقيقة الإنسانية الكامنة في روحه. فالإنســـان لا يســـتطيع أن يستشعر ذاته، والأعماق في ذاته، ومقاصد الوجود وغاياتـــه، ويطلـــع على كنه الكائنات والحوادث وما وراء ستار الأشياء، إلاّ في ضياء الإيمان... وبعد الاطلاع يحيط فهماً بالوجود في أبعاده الذاتية.

إن الكفـــر نظـــام منغلق وخانق. ففي نظر الكافر: بدأ الوجود بفوضى، وتطور في المجاهل المخيفة للصُّدف، وينـــزلق متسارعاً إلى نهاية رهيبة. وفي هذا السير المتدحرج والمنـــزلق، ليس لنا مكان ضيق، بل ولا موطئ قدم فيه نفحة رحمانية ينشرح بها الروح، أو نسيم أمان يحتضن آمالنا الإنسانية.

أمـــا إنسان الإيمان المستشعر بمنشئه وخط حركته، وتوجهاته: إلى أين وإلى ماذا، ووظائفه، ومسؤولياته، فإنه يرى كل شيء نوراً وضياء، ويطأ قدمه من غـــير قلـــق أينما يطأ، ويسير نحو هدفه الموجّه إليه بلا خوف وفي ثقة... وإذ

يســير، يُنَقّــب خمسين ألف مرة عنْ الوجود وما وراء ستار الوجود، ويرشح الأشــياء والحوادث خمسين ألف مرة في الأنبيقَ، ويصر على طرْق كل باب، ويبحث عن وشائج المناسبة مع كل شيء... وحين يقصر ما علمه وما وجده، يكــتفي بالحقائق التي رآها وعرفها في وجه التحقيقات التي استحصلها هو أو غيره حتى ذلك الحين، ثم يواصل المسير.

في إطــار هذه الموازين، يُعد سائح الإيمان مكتشفاً لمصدر مهم للقوة. هذه الخزيــنة والذخيرة التعبوية، العائدة للأبعاد الأخرى، والمرموز لها بـــ "لا حول ولا قــوة إلا بالله"، لتبلغ من الأهمية موقعاً يلغي حسّ الحاجة إلى مصدر غيره عند من يحوز على هذا المصدر للقوة، وهذا النور. فإنه لا يرى إلا هو سبحانه، ولا يعرف إلا هو، ولا يفر إلا إليه هو، ولا يحيا إلا متوجها إليه هو، فيستطيع تحــدي كل القوى الدنيوية بقدر توغل معرفته واعتماده على الله، ويعيش في شــوق، ولا يقع في التشاؤم والسوداوية حتى في أشد المواقف سلبية، مع أمل القدرة على النجاح في كل شيء.

وأكــتفي هنا بهذا القدر عن هذا الموضوع محيلاً إلى تراث ضخم من الآثار تعالجه، وفي مقدمتها كليات رسائل النور.

الوصف الثاني للوارث هو العشق الذي يُعد أهم إكسير للحياة في الانبعاث من جديد. إن من يُعَمّر ويجهز قلبه بالإيمان بالله وبمعرفته، يحس حسب درجته بمحبة عميقة وعشق أصيل لكل البشر، بل لكل الوجود... يحس فيعيش عمره كلــه وســط حــالات المد والجزر للعشق والمواجد والجذبات والانجذابات والأذواق الروحانية التي تحتضن الوجود كله جمعاً. وكما في كل مرحلة زمنية،

نحن بحاجة في الحاضر إلى أن تفيض القلوب من العشق، وأن تطفح من الشوق، في فهـــم جديـــد وطري، لتحقيق انبعاث عظيم. فما من حركة أو حملة باقية باعتبار نتائجها، من غير العشق... وخصوصاً إن كانت الحركة أو الحملة ذات امـــتدادات إلى العقبى وأبعاد ما وراءها. إن العشق الذي نقدمه في إطار تعيين موقعنا في ثنايا المناسبات والعلائق أمام الله سبحانه، الحاضر الموجود الخلاق... واستشعار الحظوظ من أن وجودنا مخلوق باعتبار وجودنا ظل ضيائه ووجوده هـــو... وتَقَـــبُّل كلامه غايةً للخلق، والسعي لتصيّدها بلا توان أو وهن، هو مصـــدر للقـــوة مكنون بالسر، وسرمد لا ينضب. ولا ينبغي أن يهمل ورثة الأرض هذا المصدر، وأن يَحْيَوه جياشاً وفواراً. لقد تعرف الغرب على العشق في أبعـــاد تلون المادة من خلف الفلاسفة وأجواء الدخان والضباب الفلسفية، فذاق طعمه وعاش الشبهات والتذبذبات على طول الطريق. أما نحن فننظر إلى الوجـــود، ومصدر الوجود، بعدسة الكتاب والسنة، ونحقق حب الخالق الذي نذكـــي جذوته ولهيبه في قلوبنا، والعشق والحمى، والعلائق التي نرتبط بها مع الوجـــود كله من أجله هو، باللجوء إلى رحاب موازنة المصدرين، مع الانفتاح على الميتافيزيقا. ذلك بأن منشأ الإنسان، وموقعه في الكائنات، وغاية وجوده، والصـــراط الـــذي يسير فيه، ونهاية هذا الصراط في هذين المصدرين، منسجم انسجاماً عجيباً مع فكر الإنسان وحسه وشعوره وتوقعاته، فلا نملك دونه -إذ نحـــس به- إلا الإعجاب والاندهاش. هاتان المحجتان البيضاوان، هما لأرباب القلوب فوارة العشق والشوق ومَنْجَم الجذب والانجذاب. فلن يعود خالياً من يـــراجعهما بصـــفوة الحس وإذن الاحتياج، ولن يموت أبداً من يلجأ إليهما. والمفـــيد أن يـــلجأ اللاجـــئون بتعمق وإخلاص الإمام الغزالي والإمام الرباني

السـرهندي والشـاه ولي الله الدهلـوي وبديع الزمان النورسي، وأن يقتربوا بحماس مولانا جلال الدين الرومي والشيخ غالب ومحمد عاكف، وأن يتوجهوا بالعمل الحركي لخالد وعقبة وصلاح الدين ومحمد الفاتح وياووز سليم... نعم، وخطوتـنا الثانـية هي أن نمزج عشقهم وشوقهم الطافح غير المقيد بالأزمنة والأمكـنة كلها، بأصول عصرنا وأساليبه ووسائله، في بيدر واحد، لنصل إلى روح القرآن الذي لا يحده زمان ولا يبلى، وبالتالي إلى ميتافيزيقية كونية.

الوصـف الثالـث للـوارث هـو التوجه إلى العلم بميزان العقل والمنطق والشـعور. هذا التوجه الذي يشكل جواباً عن تمايل البشر وحَيْدِه في انسياق البشـرية بفرضيات سوداء في مرحلة زمنية معينة، سيكون خطوة مهمة باسم الخـلاص الإنساني. ولقد أشار بديع الزمان النورسي إلى أن البشرية تتوجه في آخـر الـزمان بكل طاقتها إلى العلم والفن... فتستمد كل قوتها من العلم... ويمـتلك العـلم مرة أخرى الحكم والقوة... وتصير الفصاحة والبلاغة وقوة الإفادة موضوعا في سبيل قبول الجمهور للعلم، وموضع اهتمام الجميع... ويعني عـودة الحـياة إلى العلم والبيان[1]. ولا نرى سبيلاً غير هذا، يسلخنا من أجواء دخـان الأوهـام وضـبابها المحيط ببيئتنا، ويوصلنا إلى الحقيقة، بل إلى حقيقة الحقـائق. فـإن عبورنا لفراغ قرون، وبلوغنا حدّ الإشباع في المعرفة، وإثبات وجودنـا وثقتـنا بأنفسنا مرة أخرى بتعمير خراب حس الانسحاق المزمن في شـعورنا الـباطن، لابد له من إمرار العلم في منشور الفكر الإسلامي، وتمثيله والإفـادة عنه. وقد شهدنا في تاريخنا القريب خللاً ملموساً في الفكر العلمي

---

١ انظر النورسي ، الكلمات ص ٢٩٢.

وتزلـــزلاً في توقـــير رجـــال العلم يصعب تعميره، بسبب تشتت التوجهات والأهـــداف حيـــنا، أو اخـــتلاط المعلومة بالعلم، والعلم بالفلسفة حيناً آخر. واســـتفاد الأجانـــب المقـــيمون في بلادنا من هذا الفراغ فائدة جمة، فافتتحوا المدارس بنشاط في كل زاوية من زوايا الوطن، ولقحوا أجيالنا باللقاح الأجنبي مـــن خـــلال أعشاش التعليم. وتطوعت شريحة منا لتمكين خير أبناء الوطن اســـتعداداً وقابلـــية، من اشغال مقاعد الدارسة فيها، بل حتى بتقبيل الأيدي والأرجل، ليزيدوا في السرعة المطردة للتغريب. ثم بعد مدة، ضاع الدين وضاع الإيمان، فالدين خراب والإيمان تراب عند هذه الأجيال الغرة المخدوعة. ضاع، فوقعـــنا كأمـــة في ابتذال الذات فكراً وتصوراً وفناً وحياة. وهل نعجب من النتيجة، ما دامت هذه المدارس التي سلمناها الأدمغة الطرية بلا توجس أو قلق، تضـــع في اعتـــبارها مـــن غير استثناء وفي كل وقت، تقديم الثقافة الأمريكية والأخـــلاق الفرنســـية والعـــادات والأعراف الإنكليزية، على العلم والتفكير العـــلمي. ولذلك، بدأ شبابنا التسلي بألعاب الماركسية والدوركهمية واللينينية والماوية، منقسمين إلى معسكرات شتى، بدلاً عن اللحاق بالعصر بعلمهم وفنهم وتقنيـــتهم. فمنهم من واسى نفسه بأحلام الشيوعية ودكتاتورية البروليتاريا، ومـــنهم من انغرز في عقدة فرويد، ومنهم من ضيّع عقله في الوجودية مشدوداً إلى ســـارتر، ومنهم من أسال ماركوس رضابه، ومنهم من أهدر عمره لاهثاً خلـــف هذيان كامو... لقد عشنا هذا كله في الوطن، وتولى ما يسمى بموائل العلم دَوْر الحاضن لذلك. وفي مرحلة الأزمة هذه، لم تن أصوات القتام وأفواه الســـواد من تلطيخ اسم الدين وأهل الدين، وتشهير أنواع الجنون الغربي أمام الأنظار. من العسير علينا أن ننسى تلك المرحلة ودُماها الرخيصة. إن من هيأوا

تلك الأرضية ضد إرادة إنساننا ووطننا، سيُذكرون دائماً في وجدان الحشد البشري على أنهم مجرمون تاريخياً.

والآن، نريد أن ندع مهندسي تلك الأيام السوداء في خلوة مع مساوئهم، وفينا منهم غثيان في أنفسنا وأنين في قلوبنا، ونتحدث عن عمال الفكر المشتغلين في بناء مستقبلنا.

نعم، لابد من تحقيق تجددنا الذاتي في ظل الفكر العلمي الذي نشحن شبابنا به، وبتمازجهم تمازجاً كاملاً بالعلم والفكر، كما فعلنا ذلك قبل الغرب بقرون مديدة. إن القلق المحسوس به في الوجدان العام لسيرنا المنحوس، وخفقان القلوب بسبب العيش تحت الوصاية سنين وسنين، ورد الفعل لدى إنساننا على استغلالنا قرونا، أورثنا اليوم شهقة كشهقة النبي آدم، ونشيجاً كنشيج النبي يونس، وأنيناً كأنين أيوب عليهم السلام. لكننا نحس اليوم بانكماش المسافة واقترابنا من نقطة الوصول إلى مسافة خطوات، بدفع هذا الشعور والعقل، وبإرشاد تجارب التاريخ.

الوصف الرابع للوارث هو إعادة النظر في ملاحظاته عن الكائنات والإنسان والحياة، وتمييز الصحيح من الخطأ فيها بميزان دقيق. ونذكّر بما يأتي في هذا الشأن:

١- إن الكائنات كتاب أشهره الله تعالى أمام العيون ليراجَع باستمرار، والإنسان منشور بلوري مؤهّل لرصد الأعماق في الوجود وفهرست شفاف للدُنى جميعاً.. والحياة تَرَشُّحُ هذا الكتاب وهذا الفهرست، وَتَمَثُّلُ المعاني في

انعكـــاس صـــدى البيان الإلهي. وما دامت الكائنات والإنسان والحياة باعتبار تلوناتهـــا أوجهاً متنوعة لحقيقة واحدة - وهي كذلك حقاً- فإن تفريقها عن بعضـــها وتقطيعها ظلم وازدراء للوجود والإنسان، لما فيه من إخلال بانسجام الحقيقة.

إن قراءة بيان الله الحق سبحانه من صفة الكلام الجليلة، وفهمه، وإطاعته، والانقـــياد له واجـــب. ..فكذلـــك معرفة الحق تعالى وإدراكه بدلالة الأشياء والحوادث جميعاً، التي صورها سبحانه بعلمه وأوجدها بقدرته ومشيئته تعالى.. ثم رؤية طرق التوفيق، أساس لا يمكن التخلي عنه. فإن الفرقان العظيم من صفة كلامـــه هـــو، روحُ الوجود كله والمصدرُ الأوحد لسعادة الدنيا والعقبى. وإن كـــتاب الكائنات هو جسدُ تلك الحقيقة، وحركية مهمة مؤثرة في حياة الدنيا مباشـــرة، وفي حـــياة العقـــبى بالوسيلة، باعتبار تمثيلها لفروع العلم المتنوعة واحتوائها عليها. إذن، لإدراك كلا الكتابين وتحويل فهمهما إلى الواقع العملي، ثم نســـج الحياة كلها بمقتضى فهمهما جزاء الحسنى. وإهمالهما وغض النظر عـــنهما، وحـــتى لتفسيرهما تفسيراً غير مناسب أو إهمال تحويلهما إلى الواقع المعاش: جزاء السوء.

٢- ينـــبغي تقيـــيم الإنسان بالتحري عن الأعماق الإنسانية الحقيقية في الشـــعور والفكر والشخصية. وكذلك تقييمه في نظر الحق تعالى وعند الناس، كـــامن في تلـــك الخصوصيات. فإن الخصال الإنسانية السامية وعمق المشاعر والفكر وسلامته الشخصية كبطاقة اعتماد مطلوبة دائماً وفي كل مكان. ومن يكـــدر إيمانه وإذعانه بأوصاف وأفكار كفرية، ويُثير القلق والشبهة في محيطه

بشخصيته، لن يكون مظهراً لتجلي تأييد الحق تعالى وعنايته. وكذلك لا يمكن أن يحـــافظ على احترام الناس له وثقتهم به. فإن الحق تعالى، والناس، يقيّمون الإنسان بخصاله الإنسانية وشخصيته الرفيعة ويكافئونه على ذلك. وبناء عليه، لا يتصور أن يتحقق نجاح عظيم أو الحفاظ على نجاح قد تحقق، على يد أناس فقـــراء في قـــيمهم الإنسانية وضعفاء في شخصياتهم، وإن ظهر عليهم مظاهر المؤمـــنين الصـــالحين. كمـــا لا يتصور أن يفشل فشلا ذريعاً أناسٌ يتقدمون خطوات في سلامة شخصياتهم وخصالهم الإنسانية السامية وإن لم يظهر عليهم مظاهـــر المســـلمين الصالحين. فإن تقدير الله تعالى ومكافأته تنظر إلى الخصال والصفات، وكذلك حُسن قبول البشر يقوم عليها بدرجة ما.

٣- ينبغي أن تكون الوسائل إلى الهدف المشروع والحق، شرعيةً وحقاً. إن الســـائرين في الخط الإسلامي يتحرّون في كل عمل مشروعية الحق في آمالهم وغايـــاتهم كلها. والتزام مشروعية الوسائل إلى ذلك الحق أيضاً واجب عليهم. فلا يمكن تحصيل رضا الحق تعالى من غير الإخلاص والصدق الذاتي، ولا يمكن خدمـــة الإســـلام وتوجيه المسلمين إلى مراميه الحقيقية بوسائل شيطانية البتة. ولعلنا نرى حيناً إمكانية ذلك. لكن المستهلك لرصيده من الاعتبار والاحترام في سبل الباطل، والفاقد لرعاية الحق تعالى والتفات الناس إليه، لن يدوم نجاحه أمداً بعيداً يقيناً.

الوصف الخامس للوارث هو أن يكون حراً في التفكير وموقّراً لحرية التفكير. إن الـــتحرر وتذوق حس الحرية عمق مهم لإرادة الإنسان وباب سحري ينفتح عـــلى أسرار الذات. ومن العسير أن نصف بالإنسان مَن لم ينطلق في ذاك العمق

ولم يسلج من ذاك الباب. ومنذ سنين وسنين ونحن نلتوي ألماً في طوق الأسر الخارجي والداخلي الرهيب. ولقد ضيقوا علينا وسلطوا أثقالهم أنواعاً وألوانا على مشاعرنا وأفكارنا ونحن في طوق الأسر الذي يخنقنا... فدع عنك التجدد والتطور في هذا التحديد للقراءة والتفكير والإحساس والحياة، واسأل إنْ كان في قدرة الإنسان البقاء بملَكَاته ومواهبه الإنسانية في هذا الوسط؟ فإن حماية المستوى الإنساني البسيط والخام في هذه الأرضية عسير، فكيف بإنضاج بشر يسمقون إلى العُلى بروح التجديد ويمدون البصر إلى اللانهايات؟ فلا ننتظر في هذا الوسط إلا أناساً ضعاف الشخصية وأرواحاً هزيلة ضاوية ومشاعر مشلولة. ونعرف من تاريخنا القريب أن الأسرة والشارع ومؤسسات التعليم وأوساط الفنون قد نفخت في أرواحنا الأفكار الشاذة والموازين الفاسدة، فقلبت رأساً على عقب كل شيء، من المادة إلى الروح، ومن الفيزياء إلى الميتافيزيقا. في هذه المرحلة المذكورة، كنا نبدي انحرافا إذ نفكر، ونخطط لكل شيء على محور الأنانية، ولا نحسب حساباً لوجود معتقدات وقناعات أخرى غير معتقداتنا وقناعاتنا، ونلجأ إلى القوة باستمرار كلما سنحت الفرص. وإذ نلجأ إلى القوة، نخنق أنفاس الحق والإرادة والفكر الحر ونجثم على صدور الآخرين. والمؤلم أن هذه الأمور لم تنته بعدُ، ولا نجزم بانتهائها في المستقبل. لكن الواقع يقتضي – إذ نمضي في طريق التجديد أمةً– أن نعيد النظر إلى المحركات التاريخية لألف سنة مضت، وأن نستجوب "التغييرات" و"التحولات" المختلفة لمائة وخمسين سنة مضت. هذا ضروري، لأن الأحكام والقرارات تُقَوْلَب في الحاضر حسب مقدسات (!) مصطنعة. والقرارات المنبثقة من تحت ثقل الفهم السائد المعلوم معلولة... وغير ولودة... وعاجزة بديهةً عن الإعداد للمرحلة المضيئة المأمولة. ولئن أُعدّت

لشـــيء، فإنها تُعِدّ للتصارع بين الحشود المنحشرة في شباك غرائز الحرص القاتلة، والخصام بين الأحزاب، والعراك بين الشعوب، والصدام بين القوات. وإنها اليوم هـــي ســـبب تضـــارب شريحة مع أخرى، وتحول التنوع إلى التخاصم، وحتى الوحشـــية المشـــهودة في الأرض! فربما كان العالم يختلف عما عليه الآن اختلافاً بعيداً، لو أن البشر لم يكونوا أنانيين ومنساقين للرغبات وقساة إلى هذه الدرجة.

علينـــا إذن أن نكون أفسح في حرية الفكر وحرية الإرادة في مسيرتنا نحو عوالم مختلفة، سواء في سلوكنا مع الآخرين، أو من زاوية أنانيتنا الذاتية وتمسكنا برغباتنا. فالحاجة ماسة اليوم إلى صدور متسعة تحيط بالتفكير الحر وتنفتح على العلم والبحث العلمي وتستشعر التوافق بين القرآن وسنة الله على الخط الممتد من الكائنات إلى الحياة. ولن يقتدر على ذلك في هذا الزمان إلا جماعة تتحمل دعوة مشبعة بالدهاء. وفي الواقع كانت هذه الأمور العظام تمثل في أفراد دهاة في الماضي. لكن كل شيء اليوم توسع في التفريعات توسعاً يعجز الفرد الفريد عـــن حمـــل العبء، فحلت الشخصية المعنوية والتشاور والشعور الجمعي محل الدهاء. وهذا هو **خلاصة الخطوة السادسة** لورثة الأرض.

ولا يمكن إلصاق هذا الفهم بالمجتمع الإسلامي في تاريخنا القريب. ذلك لأن التعلـــيم التقليدي لم يزد على ترداد مسلماتها الثابتة، والمدرسة التقليدية أطلت عـــلى الحياة من حافاتها وأطرافها، والتكية (الزاوية) دفنت نفسها في الميتافيزيقا تماماً، والثكنة توترت بالقوة وحدها وزمجرت بالقوة وحدها. فمن الإجحاف إذن أن نحمّل هذه المؤسسات في تلك المرحلة مسؤولية نمط الحياة.

في تلـــك المـــرحلة، هيمن الفكر السكولاستيكي[1] (Scolastique) على التعليم التقليدي و لم يتنفس إلاّ هواءه، وعاشت المدرسة التقليدية مشلولة لغلق أبوابهـــا بوجه العلم والفكر والحرمان من قوة الإبداع والإنشاء، وسلّتْ التكية والزاوية نفسَها بقراءة المناقب بدلاً عن العشق والشوق، واستحكمت في ممثلي القـــوة عقـــدة إثبات الذات والتذكير بالنفس بصورة متكررة لظنهم أنهم قد أُهمِلوا... وفي خضم ذلك، انقلب كل شيء رأساً على عقب، وانقعلت شجرة الأمـــة لتهوي إلى الأرض. ويبدو أن هذه الزلازل لن تسكن إلى يومٍ يتهيأ فيه الســـعداء الذين يمهّد القدر دروبهم لاستخدام هذه الحركيات استخداماً أمثل، ولتنفيس الاختناقات بين القلب والعقل وفتح ممرات الإلهام والتفكر في أعماق الإنسان النفسية.

الوصف السابع للوارث هو الفكر الرياضي. لقد حقق الأوائل في آسيا في الـــزمن الماضـــي، ثم الغربيون، نهضتهم بفكر القوانين الرياضية. ولقد كشفت الإنســـانية في تاريخهـــا كثيراً من المجاهيل والمغلقات بدنيا الرياضيات المفعمة بالأسرار. فإذا تركنا التصرف المفرط للحروفية جانباً، فإنه لولا الرياضيات لما توضـــحت المناســـبات بين البشر ولا بين الأشياء... فهي - كمصدر نور - تضـــيء طريقـــنا في الخـــط الممتد من الكائنات إلى الحياة، وترينا ما بعد أفق الإنسان، بل أعماق عالم الإمكان العسير التفكير فيه وتحمله، واللقاء بغاياتنا.

لكـــن العـــلم بالأشياء المتعلقة بالرياضيات لا يعني أن العالِم بها رياضي.

---

١ المقصود هو التمسك بالأصول والأساليب التقليدية والاعتماد على المعاني اللفظية ومدلولات الكلام الموروثة. (المترجم)

الرياضـي يجمـع بين الرياضيات وقوانينها فكرياً، ويصاحبها دائماً في الطريق الممـتد من الفكر الإنساني إلى أعماق الوجود. يصاحبها دائماً من الفيزياء إلى الميتافـيزيقا، ومـن المادة إلى الطاقة، ومن الجسد إلى الروح، ومن الشريعة إلى التصوف. إننا مضطرون إلى قبول الأسلوب المزدوج لفهم الوجود فهما شاملاً: وأعـني الفكـر التصوفي والبحث العلمي. لقد أرهق الغرب نفسه لملء فراغ جوهـر لم يعـرفه أساسـاً، فحاول سد الحاجة نسبياً بالالتجاء إلى الروحية (Mysticism). أمـا نحن، فلسنا بحاجة إلى التفتيش عن شي أجنبي أو اللجوء إلى أي شيء لعالمنا المتمازج بروح الإسلام على مدى الزمان. إن مصادر طاقتنا موجـودة في منظومتنا الفكرية والإيمانية. فالمفيد أن نحيط بفهمنا هذا المصدر والروح كما هو في ثرائه الأول... فنشهد عندئذٍ شيئاً من المناسبات الخفية في الوجـود والمحركات المنسجمة لهذه المناسبات، ونبلغ إلى تطلع مختلف، وعرفان ذوقٍ مغاير، في النظر إلى كل شيء.

بعـد تقديم خلاصة قصيرة عن الفكر الرياضي قد تبدو غامضة وإسرافاً في الكلام، لكني أثق بدوي أصدائه في المستقبل، أريد أن أنوّه إلى **الوصف الثامن** وهـو فكرنا الفني. لكني بناء على ملاحظات معينة، أكتفي هنا بقول جولفر: "بعـض الأوسـاط ليسـت على استعداد حتى الآن للانخراط في هذه المسيرة بمقاييسنا"، فاختم بهذا التنويه.

الشورى

الشـــورى وصف حيوي وقاعدة أساسية لربانيي اليوم كما كانت للورثة الأولين. فهي في القرآن أبرز علامات المجتمع المؤمن وأهم خصوصيات الجماعة الـــتي تهـــب قلبها للإسلام. وتوضع الشورى في القرآن الكريم صفاً واحداً مع الصـــلاة والإنفـــاق ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الشورى: ٣٨) فينبه المولى تعالى إلى أن الشورى تعامل يترادف مع العبادة، ويبين هذه المسألة الحيوية في الأمر الإلهي بالاستجابة لله تعالى وذكر ضرورات الاستجابة ونتيجتها: الصلاة والشورى والإنفاق.

فبهذا الاعتبار، لا يُعدّ المجتمع الذي يهمل الشورى مجتمعاً متكامل الإيمان، كما لا تُعدّ الجماعة التي لا تعمل به جماعة مسلمة بالمعنى الكامل. فالشورى في ديـــن الإسلام أساس حياتي لابد للرؤساء وللمرؤوسين من إجرائه. فالرؤساء مكلّفون بالاستشارة في السياسة والإدارة والتشريع وأمور كثيرة تتعلق بالمجتمع، والمرؤوسون مكلّفون ببيان رأيهم وفكرهم فيها للرؤساء.

وأجـــد فـــائدة في إيراد ملاحظات عن الشورى. الشورى شرط أساسي لإمكـــان إقـــرار الرأي الصائب في مسألة من المسائل. وظهرت كثيراً النتائج الوخيمة والهزيلة للقرارات المتعلقة بالفرد أو المجتمع ما لم يمحّص بآراء الآخرين أو تجـــريحاتهم. وإن مَن ينحصر في رأيه ولا يعتدّ بآراء غيره، مهما كان رفيع الفطرة وعالي الذكاء، بل داهية من الدهاة، يتعرض إلى أخطاء وزلات أكثر مما

يتعرض لها رجل آخر متوسط المواهب ينفتح في آرائه بالمشورة. فالإنسان الأعقل هو الأعظم اعتداداً والتزاماً بالمشورة، واستفادة من أفكار الآخرين. ولا ينجو الذي يكتفي في عمله وبرامجه بأفكاره، أو يسعى لفرضه على غيره، من فقدان قدرةٍ حركية مهمة، وزد على ذلك نفوراً وكرها واستثقالاً يلقاه ممن حوله لا محالة.

فالمشورة هي الشرط الأول لاستحصال امرئ خيرَ حاصل من كل عمل يعمله، كذلك هي الوسيلة المهمة لاستمداد قدرة تزيد عن قدرته وطاقته أضعافاً مضاعفة.

فينبغي إجراء أوسع استشارة وتحرٍ قبل مباشرة عمل من الأعمال، والجدّ في الأخذ بالأسباب والتدابير، حتى نتجنب الوقوع في تصرفات مضرة تضاعف المصيبة في النتيجة، مثل تجريح القدر أو اتهام الوسط القريب. ولا مفر من الندم وانكسار الخاطر ما لم يُتدبر في عاقبة الأمر ويستشار أهل المعرفة والخبرة قبل العزم على العمل. وكم من عمل خاض فيه من خاض من غير رويّة، فلم يمضوا فيه غير خطوات، ثم أورثهم الانكسار والانكفاء في أنفسهم، وضعف الحظوة والاعتبار عند غيرهم.

والقاعدة في الإسلام كنظام، أن الشورى من أهم القدرات الحركية لقيامه ودوامه. فهي أهم العناصر في حل المسائل المتعلقة بالفرد والمجتمع، والشعب والدولة، والعلم والمعارف، والاقتصاديات والاجتماعيات، فيما لم يرد فيه نص صريح.

إن هيـــئة شورى الدولة في الإسلام تتقدم على السلطة التنفيذية وترشدها؛ وهيئة الشورى في الدولة التركية اليوم تُعد محدودة في الوظيفة وضيقة الساحة في الحركة ومقيَّدة قياساً بالشورى في الإسلام.

وإن رئـــيس الدولة ولي الأمر الأعظم ملزم بأصل الشورى وإن كان مؤيداً من الله ومُعلَّما ومُربّى بالوحي والإلهام. هكذا كنا من الماضي إلى الحاضر. ولئن وقع إهمال الشورى هنا أو هناك، فإن الشعوب والمجتمعات التي كثيراً ما أجرته بأسماء وعناوين متنوعة لا يستهان بها. ولكن لم يفلح حتى اليوم أي مجتمع أهمله أو تناســـاه. وحيـــث يقـــول ســـيدنا ﷺ "ما خاب من استخار ولا ندم من استشار"[1] يعلق فلاح الأمة وضمان مستقبلها بالشورى.

تـــرد الشـــورى في القـــرآن الكريم في آيتين بالتصريح، وفي آيات كثيرة بالتلمـــيح. هاتـــان الآيتان المصرحتان بالشورى من غير تأويل أو تفسير بأمره السـبحاني همـــا: ﴿وَشَـــاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ في سورة آل عمران (الآية: ١٥٩) و﴿وَأَمْـــرُهُمْ شُـــورَى بَيْنَهُمْ﴾ في سورة الشورى المبينة (الآية: ٣٨). هذا، وفي تسمية السورة التي فيها بيان الشورى بهذا الاسم حكمة بالغة.

فترد الشورى في هذه السورة وصفاً للصحابة الكرام نائلين للمديح، فكأن في الآيـــة الكريمة تذكير فيه بُعدٌ من الثناء لهؤلاء الذين جعلوا الاستشارة محور أعمـــالهم وأمورهـــم. وإن اختيار وصف الشورى من أوصاف الثناء والمديح الكثيرة في الأصحاب الكرام دليل على الأهمية العظمى للمشورة.

---

١ المعجم الأوسط للطبراني، ٣٦٥/٦

وكما يجعل القرآن الكريم الشورى قاعدة لها أهمية عظيمة، كذلك السنة السنية تهتم بها اهتماماً بالغاً، بل تحشد لها النصوص حشداً. فكان سيدنا الرسول ﷺ يستشير كل واحد في كل مسألة ليس فيها نص، رجلاً أو امرأة، شاباً أو شيخاً. ومع التقدم الحاصل في ميادين مختلفة، فلم نبلغ بعد في الشورى إلى ما بلغوه في تلك الأيام.

نعم، كان رسول الله ﷺ يستشير أصحابه في كل أمر، ويستطلع ما يرونه ويفكرون فيه، ويستحصل على موافقة رأيهم العام على كل عمل يخطط له، ويستعمل أحاسيس الوجدان العام ومشاعره وميوله كالبنيان المرصوص لتكتسب قراراته قوة خاصة من حيث المقاومة. فقد كان يهيئ مشاركة الجميع روحاً وفكراً في الأعمال التي يبرمج لها، فيحقق مشاريعه بأمتن الحسابات الإحصائية.

لنطلع على مشاهد من حياته السنية ﷺ المتعلقة بهذا الشأن:

حين خرج حضرة سيد الأنام ﷺ إلى "أُحد" لقن الأصحاب توصيات ورعى أموراً استراتيجية. ومن هذه الأمور التي أنفذها من غير أن يستلم أدنى إشارة لمخالفة أو اعتراض: وضعُ الرماة في موضع مرتفع من "أُحد"، وتنظيم حال قتالهم للأعداء، وتحذيرهم من ترك مواضعهم مهما آلت إليه مجريات الحرب، ونهيه عن النزول لاقتسام الغنائم... وتوصيات أخرى. ولكن الأصحاب الكرام وقعوا في خطأ اجتهادي في انتهاء مدة الأمر باعتبار الوقت، مع رفعة فهمهم للطاعة ودقائقها. فصاروا في وضع مخالفة خفية. وواجه سيدنا ﷺ معارضة ضمنية أخرى في مسيرة "أُحد". فلو كان غيره في موقعه،

وواجهته تلك المعارضات المتتالية، التي أوقعت هذه الأضرار والخسائر، لأزاح آراءهم بظهر كفيه وقال: اذهبوا... عاقبكم الله! لكنه لم يفعل ذلك. بل كان يقــرأ عليهم وهم منهمكون في البحث عن المذنب والبريء: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمْــرِ﴾ ويجمعهـــم للتشاور` ووجهه يقطر دماً بأوحش اعتداء للأعداء سبّبه أصحابه، وسط أشلاء أجساد الشهداء، وشَدَهِ الأصحاب وحيرتهم في أنفسهم، حـــتى توجّه بعضهم نحو المدينة في تلك المحنة، غير مبالٍ بما حصل. ولا يكتفي باستشارتهم، بل يبلغهم بأمر الله له بطلب العفو والاستغفار لهم.

وهكـــذا يُظهر رسول الله ﷺ بأنه مأمور بالشورى، مع مضاء حياته السنية في أنـــوار الوحي، فيذكّر الرؤساء بمسؤولياتهم، ويفسح السبيل أمام المرؤوسين لتقويم آرائهم، ويرشدهم إلى إعانة الرؤساء، ويحذر هؤلاء من الاستبداد.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه لما نـــزل الأمر السبحاني: ﴿وشاوِرْهم في الأمْرِ﴾ عقب غزوة أُحد، أفصح بأن الله تعالى ورسوله ﷺ غنيان عن المشورة. لكـــن الله أرسله رحمة للأمة، وأن من استشار أصاب، ومن تركه ضل. فنفهم أهمـــية الـــتزام الرؤســـاء بالشورى من أمر الله تعالى لنبيه بها مع استغنائه عن الشورى وانعدام حاجته إليها.

ونعرض عليكم شيئاً من جواهر أحاديث تملأ الدنيا، تشرفت بالصدور عنه ﷺ:

"ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد".[1]

---

١ المعجم الأوسط للطبراني، ٦/٣٦٥

"ما شقي عبد قط بمشورة، وما سعد باستغناء برأي".[1]

"إن المستشار مؤتمن".[2]

"والله ما استشار قوم قط إلا هدوا لأفضل ما بحضرتهم".[3]

لذلك، اتفق علماء الإسلام على أن الشورى أصل من أصول الإسلام وحكم يلزم العمل به. وقد نفذ هذا مع الاختلاف في التنفيذ على مدى الزمان في العهود المتعاقبة وفي مواجهة أوضاع خاصة.

* * *

وبدهي أن الشورى ليست مصدراً تشريعياً تسبق الأوامر الإلهية. نعم، الشورى أساس لقوانين ونظم، لكنه محدود بمصادره التشريعية الحقيقية. فالإسلام لا يسمح بالتدخل الإنساني في المسائل التي ورد فيها نص صريح. ففي هذه المسائل يراجع الشورى لاستشفاف المقاصد التي يعبر عنها النص. وما عدا ما ورد فيه نص، فهو في مجال الشورى تماماً. وما يقرره الشورى من نتائج وقرارات في هذه المسائل، مُلزمة كإلزام النص... ولا يجوز مخالفة ما يتقرر عن الشورى بعد ذلك، أو سرد الآراء والأفكار المتناقضة معها. فإن وجد خطأ في قرار الشورى مع اتفاق الجمهور، فيُزال الخطأ بالشورى أيضاً.

وصحيح أن نصوص الشورى تفيد العموم في معنى من المعاني، لكنها

---

١ مسند الشهاب، ٦/٢

٢ أبو داود، الأدب ١١٤؛ الترمذي، الزهد ٤٩، الأدب ٥٧

٣ الأدب المفرد للبخاري، ١٠٠/١

تخصصت أيضاً بتعلق النصوص بمواضيع معينة، وبعمل رسول الله ﷺ وتصرفه.
إن النصوص في الإسلام أبانت مواضيع معدودة تفيد أصولاً كلية وقواعد عمومية، ولم تفصل كثيراً فيما عداها من الأمور المحسوبة من التفرعات. أما المسائل التي لم يرد فيها نص، فهي في مجال الشورى بتمامها ومعروضة على التشاور. فانطلاقاً من وضع الإسلام للمسائل التي وردت فيها أحكام صريحة خارج حدود الشورى، والمسائل التي لم ترد فيها أحكام صريحة داخل حدوده، فإنه يبقى في حال من الأحوال مرتبطاً بالإسلام وموجهاً بالقرآن والسنة وساعياً لتحقيق الغاية المبينة في كتاب الله. ولا شبهة في أن الإسلام يستهدف أول ما يستهدف غايات مثل: تحقيق المساواة بين البشر، ومحاربة الجهل ونشر العلم، ونسج المسائل كلها حول الهوية الإسلامية ومنع تضاد المسلم مع ذاته، وتوجيه إنسان هذا الوطن للحفاظ على منزلته ووقاره في الموازنات الدولية، وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الفرد والمجتمع، وتطوير مشاعر الشعب برمته وبجميع أفراده، في الحب والاحترام والاهتمام بِهَمّ الآخر والتضحية ورهافة أحاسيس الفيوضات المادية والمعنوية للحياة من أجل الآخرين، ومراعاة الحفاظ على الموازنة بين الدنيا والآخرة، وتنظيم السياسة الداخلية والخارجية، ومتابعة التطور في العالم، وتجهيز مصادر القوة وتحديثها، وحتى فرَق الحرب النفسية، إلى درجة القدرة على مواجهة العالم متى ما لزم. لم يبرح القادة الكبار ورجال الفكر العظام والفلاسفة العمالقة معالجة مثل هذه المسائل الإنسانية منذ قديم الزمان وحتى الآن. ولقد اهتم رسول الإسلام الجليل ﷺ بهذا الهدف في إطار مسؤوليته التشريعية والتمثيلية في سنوات حياته السنية، وأقام على هذا الأساس حياة البشر وأنشطتهم الثقافية ومساعيهم وجهودهم ومناسباتهم مع بعضهم

البعض، فحقق بهذه الوسيلة الروابط بين مشاعرهم وأفكارهم وعقولهم ومنطقهم وأحاسيسهم وقلوبهم.

* * *

وإن للشورى نتائج تَعِدُ بها بخصوصياتها، وقواعد توصل إلى هذه النتائج، من جملتها: رفع مستوى الفكر والمشاركة في المجتمع، والتذكير بأهميته بالرجوع إلى رأيه في كل حادثة، وتشجيعه على توليد الأفكار البديلة، والحفاظ على حضور الشورى وحيويتها من أجل مستقبل الإسلام، وتحقيق مشاركة السواد الأعظم في الإدارة بقدر الإمكان في كل مناسبة، وإدامة حياة الإحساس بمحاسبة الرؤساء متى ما اقتضت الحاجة، وإعاقة تصرف الرؤساء الاعتباطي وتحديد تصرفهم.

قلنا آنفاً أن الله تعالى قد أثنى على الصحابة الكرام بالآية الكريمة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ بناءً على الأهمية الحيوية للشورى، وإن حكمة بالغة تنطوي في أمر الله تعالى لسيدنا ﷺ باستشارة أصحابه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ والمعركة شارفت على نهايتها، وفي أثقل الساعات شدة، ومع أصحابه الذين كانوا سبب هذه الشدة!

إن أصل الشورى الذي تشرف بالتنزيل في هاتين الآيتين، أصل متوسع المرونة، مُلَبٍّ لاحتياجات العصور، مُتَخَطٍ لحدود الزمان. فمهما تغير العالم وتعاقب الزمان، وحتى إن رحل الإنسان إلى الفضاء وعمّر مدناً هناك، فلا حاجة لزيادة شيء على هذين النصين. وفي الحقيقة أن أصول الإسلام وقواعده

الأخرى كلها تمتاز بالمرونة نفسها وتتفتح على الكونية عينها... ولقد احتفظت بشبابها وعمليتها على مرّ الزمان، وستبقى كذلك.

* * *

ومن المفيد أن نذكّر بأمور من أسس الشورى، هي:

١- الشورى حق للرؤساء وللمرؤوسين، ولا رجحان حقٍ في استعمال هذا الحق لطرف على الطرف الآخر. وفي أمره تعالى: ﴿وأمْرُهم شُورَى بينَهم﴾ دلالة إلى مساواة الطرفين في الشورى. فأمور المسلمين شأن للمسلمين كافة، لذلك يتساوون جميعاً في حق النظر فيها. لكن هذا الحق يتغير بتغير الزمان والمكان والحال، ويستتبع تغيراً في صورة إجراء الشورى وشكلها.

٢- لما كان الرئيس مكلّفاً بالشورى في الشؤون المتعلقة بالمجتمع بموجب الأمر الإلهي: ﴿وشاوِرْهم في الأمْرِ﴾ فإذن يقع تحت طائلة المسؤولية إن لم يعرض هذه الشؤون الداخلة في نطاق التشاور على أهل الرأي. من جهة أخرى، يتحمل المرؤوسون مسؤولية كتم آرائهم إن لم يبدوها متى عرضت عليهم هذه الشؤون للتشاور. بل يعدون مقصرين في أداء حقوق المواطنة إن اكتفوا ببيان الرأي، ولم يجهدوا في الإقناع على الأخذ بالرأي المطروح.

٣- ومن الأسس المهمة: طلب رضا الله تعالى وتحري مصلحة المسلمين في الشورى، والامتناع عن تحريف آراء أهل الشورى عن وجهتها بالرشوة والضغط والتهديد. يتفضل رسول الله ﷺ فيقول: "إن المستشار مؤتمن" فمن استشير في شيء فعليه أن يشير وكأنه يشير لنفسه.

٤- قد لا يحصل إجماع في الشورى. فإن لم تتفق الآراء في مسألة إجماعاً، فيعمل برأي الأكثرين وقناعتهم فإن صاحب الشريعة ﷺ يجعل الأكثرية في حكم الإجماع حيث يقول: "يد الله مع الجماعة"[1] ويقول: "إن أمتي لا تجتمع على ضلالة"[2] ويقول أيضا: "سألت الله عز وجل أن لا يجمع أمتي على ضلالة فأعطانيها".[3]

ففي بياناته هذه ﷺ، يخطرنا بأن للأكثرية قوة الإجماع، وبلزوم اتباع السواد الأعظم. وفي حياته السنية أمثلة كثيرة على ذلك، منها: تشاوره في أوائل بدر وأُحد وأواخرهما.

٥- لا يجوز مخالفة رأي أو اقتراح بديل له بعد إقراره بالإجماع أو الأكثرية، ما دامت الشورى قد أجريت حسب شروطها. فإظهار الرأي ضد القرار بحجج كصحة الرأي المخالف أو تثبيت هامش بالمخالفة على أصل القرار هو إفساد وإثم. فقد خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد على خلاف اجتهاده، موافقاً لرأي الأكثرية، ولم يبد بيانا من بعده عن رأي الأكثرية مع ثبوت غلطهم، لا في الأول ولا في الآخر، بل ومع إشارة القرآن الكريم إلى احتمال مُساءلة أولئك المقربين عن تلك الزلة في أثناء التجهيز لأُحد.

٦- تنشغل الشورى أكثر ما ينشغل بحلّ المشكلات القائمة، لا بمقررات لحوادث قد تحصل... إن الحياة الإسلامية تبقى مستمرة في ظل النصوص بداهة

---

١ الترمذي، الفتن، ٧

٢ ابن ماجة، الفتن، ٨

٣ المسند للإمام أحمد، ٣٩٦/٦

وطـــبعاً. أما الوقائع التي تحصل خارج معالجتها أو الخطط والبرامج الضرورية، فتُؤخَذُ بخصائصها وشروطها، ويُحَلُّ كل حادث أو برنامج في ظروفه ومجراه.

٧- تجـــتمع الهيـــئة المشكّلة للشورى كلما دعت الحاجة، فتبت في المشكلات والمســـائل وتـــنجز الخطط والبرامج، ولا تنفك عن العمل حتى إكماله. وليس في أيدينا نص عن إجراء الشورى في دورات زمنية معينة، ولا إشارة إلى إجرائها بأجر ومرتّـــب. ونحن غير ملزمين بالتطبيقات الجارية بعد مرحلة التشريع. والمشاهَد أن إجراء الشورى بموظفين من ذوي الرواتب يستجلب معه مشاكل معروفة.

* * *

الكـــلام عـــن الشورى يتطلب الكلام عن المستشارين بالضرورة. لما كان اجـــتماع الناس كلهم على صعيد واحد للتشاور محالاً، فالضرورة الملزمة هو الاكتفاء بزمرة معينة منهم. كذلك، ينبغي أن يمتاز هؤلاء بمؤهلات خاصة بناء عـــلى حاجة الشورى إلى العلم والممارسة والاختصاص والخبرة بدرجة كبيرة، حســـب المواضيع المطروحة للتشاور. وهم من اصطلح العلماء على تسميتهم بـــأهل الحل والعقد، الكبار المقدمين المقتدرين على حل المشكلات. والضرورة تحكـــم بتواجد أهل الخبرة والاختصاص في المواضيع العلمية والفنية والهندسية المتعددة التي هي من مصالح المسلمين، زيادة على توافر المعاني والروح والعلوم الإســـلامية، في الكـــبار المقدمين من أهل الحل والعقد، وخصوصا في أيامنا، لتشـــابك الحياة وتحول كل مشكلة إلى مشكلة عالمية. في هذه المسائل، يمكن الاعتماد على أهل الاختصاصات المتنوعة في الشورى، بمراعاة التوافق مع الدين حســـب تدقـــيق أعلام علماء الإسلام. وكما أن الشورى مناطة بأهل الحل

والعقد، فإن شكل إجرائها بتغير الزمان والأحوال مناط بهم أيضاً. فنجد حينما نقرأ أوراق التاريخ تنوعاً في تنفيذ الشورى على مر العصور وتغير الأحوال. فهي تُجرى في دائرة ضيقة تارة، وفي دائرة أوسع تارة، ولا تتجاوز دائرة المدنيين مرة، وتفتح أبوابها لأرباب السيف وأرباب القلم مرة أخرى، في أوضاع متنوعة بتقلب عصور التاريخ. وليس ذلك بسبب تعرض هذا الأصل إلى التغيير، بل بسبب المرونة والعالمية التي تجعل الشورى قابلة للتطبيق في كل عصر ومكان.

ومهما تغيرت أشكال إجراء الشورى حسب الزمان والمكان والأحوال، فإن اتصاف الكبار المقدمين بالعلم والعدالة والدراية والنظر والخبرة والحكمة والفراسة ثابت لا يتغير. العدالة هي أداء الفرائض واتقاء المحرمات وتجنب ما يناقض القيم الإنسانية. والعلم هو الدراية والخبرة في الدين والإدارة والسياسة والفن. ولا يلزم أن يكون الفرد نفسه متخصصاً في فروع العلم المتنوعة، لكن اللازم أن تكون الشخصية المعنوية لهيئة الشورى متفتحة على كل هذه المواضيع. ولا مندوحة في الرجوع إلى أهل الدراية من غير علماء الإسلام في الموضوعات المعتمدة على النظر والخبرة. وكما قد تحمل الحكمة في دلالتها ومعناها على العلم والحلم ومعنى النبوة، كذلك تصرف إلى الاطلاع على ما خلف ستار الأشياء والنظر والشعور بالأمور الغائبة عن الناس بنور الفراسة، والقدرة والقابلية والفطانة في حل المعضلات الفردية والاجتماعية. فأهلها قليل ووزنها ثقيل وتحظى في كل زمان بالتوقير والقبول.

* * *

وينبغي التوقف ملياً عند اهتمام سيدنا النبي ﷺ في حياته السنية كلها بالشورى، والاحترام لرأي كل أمرئ مهما كان سناً وعقلاً. فكان ﷺ يرجع إلى آراء الآخرين في كل وقت... ويستأنس بنظرهم ويتحرى عن أقوم السبل لتأسيس خططه وبرامجه على أرض صلبة. فمرة يستطلع نظر أهل الرأي فرادى، ومرة يجمعهم معاً ليسند الشورى بالشعور الجماعي. وهذه نماذج من سيرته تنير المسألة:

١- في حادث الإفك: استشار سيدنا ﷺ عليا وعمر وزينب بنت جحش وبريرة وغيرهم من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. فأشار علي رضي الله عنه برأي يذهب فيه إلى التفريج عن كربة سيدنا ﷺ. وتوقف عمر وزينب وبريرة وكثير من الذوات المباركة رضوان الله عليهم عند طهارة وزكاة وسمو أمّنا عائشة رضي الله عنها. وقد رويت في مشورة عمر رضي الله محاورة لطيفة وإن انتُقِد سندها. فقد سأل رسول الله ﷺ عما يراه في أمّنا عائشة رضي الله عنهما. فأكّد عمر طهارتها وزكاتها. فلما سأله سيدُنا عن مستند حكمه هذا أجاب مذكّراً بأنه كان عليه الصلاة والسلام يصلي بهم مرة، فخلع نعله أثناء الصلاة. فلما سُئل عن سبب خلع النعل أثناء الصلاة رد بأن جبريل عليه السلام أنبأه بلوثة نجاسة في النعل. فإن كان الله ينبئ عن لوثة نجاسة في نعل رسول الله ﷺ، فكيف يعقل أن لا ينبئ عن شيء يلحق بزوج ﷺ؟ ولئن تعلق أصل الرواية هذه بشِباك موازين الجرح والتعديل، فالعبرة لا تناقش.

٢- في غزوة بدر استشار الرسول ﷺ المهاجرين والأنصار. فتكلم المقداد رضي الله عنه عن المهاجرين، وسعد بن معاذ عن الأنصار كلاماً يقرب بعضه من

بعض في نصرة رسول الله ﷺ فيما يراه، مفعما بالإيمان والحماس والتسليم له. فوجها جماعتيهما إلى تأييد القرارات المتخذة وإنفاذها. فهناك يجعل رسول الله ﷺ عموم الناس أصحاباً لقرارات حيوية ويستنصر بالوجدان الاجتماعي إلى جانبه.

٣- وفي بدر أيضاً استشار ﷺ حباب بن منذر والأصحاب عن المنزل الذي ينزله جيش الإسلام وفي أي واد يلقى العدو، وأقر قرارات أنفذها الجيش المسلم، فتغلب على قوة العدو البالغة ثلاثة أضعاف المسلمين أو أربعة أضعافهم في حملة واحدة، عاد بعدها إلى المدينة تحدوه أناشيد النصر.

٤- وفي وقعة الأحزاب: استشار ﷺ الأصحاب الكرام، فمال إلى رأي سلمان الفارسي رضي الله عنهم أجمعين، بحفر خندق حيث يظن دخول الأعداء منه إلى المدينة. فكان أنموذجاً للأهمية التي يوليها للشورى.

٥- في صلح الحديبية: اهتم بالشورى اهتماماً بالغاً، فاستطلع رأي الجمع الكثير، وبعده استشار أمّنا أم سلمة، ثم أبان عن نهج واستراتيجية حسب الآراء والأفكار التي سارت في استقامة ميوله الذاتية، فغيّر هزيمة لا مفر منها إلى نصر مؤزر في عودته إلى المدينة.

إن التحري في حياته السنية ﷺ يظهر أمام النظر الشورى في كل مسألة أو معضلة لم ينزل فيها وحي، والأخذ بها بعد العرض على الوجدان الاجتماعي. وليست مجالس الشورى في دول الإسلام المتعددة بعد ذلك، إلا صوراً مبسطة للشورى الأولى، وهيئتها الأولى.

العمل الحركي والفكر

يمكن تلخيص خط كفاحنا كورثة الأرض بكلمتي العمل الحركي والفكر. وإن وجودنـــا بوجهه الحقيقي يمر عبر العمل الحركي والفكر... عمل حركي وفكـــر يغـــيران الذات والآخرين. ومن وجهة أخرى، يبدو كل وجود وكأنه حاصل حركة ومجموعة أنظمة، وبقاؤه مرتبط بالحركة وبتلك الأنظمة.

وإن أهم شيء وأشده ضرورة في حياتنا هو العمل الحركي. فمن الضروري أن نـــتحرك عـــلى الدوام في ظروف قاهرة نضع أنفسنا تحت ثقلها بأنفسنا، لنحمل فوق ظهورنا واجبات ونفتح صدورنا أمام معضلات، بالعمل الحركي المســـتمر والفكر المستمر، ومهما ضحينا في هذا السبيل. فإن لم نتحرك نحن، فســـندخل في تـــأثير الدوامات الفكرية والبرنامجية لأمواج هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثل فصول حركاتهم.

إن الســـكون الدائم يعني إهمال التدخل فيما يحدث حولنا، وترك المشاركة في التكوينات المحيطة بنا، والاستسلام للذوبان الذاتي رغماً عن أنفسنا كقطعة جليد سقطت في الماء. وتعاجزنا عن حماية جزيئاتنا الذاتية في هذا الذوبان، يعني التسليم لأي تكوين أو حادث يناقض ذاتنا ويضاد جوهرنا. ينبغي على الذين يـــبرمجون لـــبقاء الـــذات أن يطلبوه بكل رغباتهم وميولهم وقلوبهم ووجداناتهم وحـــركاتهم وأفكـــارهم، لأن حضـــور الوجود يقتضي توتراً تاماً في الجوهر الإنساني. نعم، يقتضي الوجود بداية، ثم إدامة الوجود، ذراع الإنسان وجناحه

وقلبه ورأسه. ونحن إن لم نضحّ منذ الآن بقلوبنا ورؤوسنا من أجل وجودنا في الغد، فسيطلبها منا الآخرون بوقاحة في مكان وزمان لا نفع لنا فيه قطعاً.

إن أهـــم مميزات العمل الحركي الإسلامي والفكر الإسلامي هو: أنْ يكون وجودُنا ذاتَنا، وأن نجعل مطالبنا مطالب العالم ورغباته، ثم نجد مجرى حركة لنا في عموم الوجود ونسيل بذاتنا في مجرانا الخاص ضمن مجريات عموم الكائنات، (ويعـــني الحفـــاظ على خطنا الخاص إذ نتكامل مع الكائنات كلها). ومن لا يرتـــبط باعتبار عالمه الخاص بعموم الوجود، ولا يحس بعلاقاته مع الكائنات، وينكفـــئ في روابط مطالبه الفردية والجزئية في مواجهة الحقائق الشاملة للعالم، فإنـــه يقطع أواصر ذاته عن الوجود كله، ويجردها، ويسقطها في حبس الأنانية القاتل. ولا شبهة في أن الباعث على انقطاع الإنسان عن الوجود وبقائه وحيداً بذاتـــه، هو: الشهوات البدنية والصراعات الواقعة في أطراف الجسمانية، وكل ســـلوان فارغ الفحوى وذي بُعد وهمي، يرجع في جذوره إلى تلك الشهوات البدنـــية والصراعات الجسمانية. إن دنيا رجل العمل الحركي والفكر الحقيقي، وســـعادته في دنياه، ذات تلونات عالمية الشمول مؤطرة بالأبد. فكأن دنياه لا بداية لها ولا نهاية، أو أنها تتجاوز تصوراتنا. ولذلك، نتذكر أمثال أولئك حينما نقول "الإنسان السعيد". وهل تسمى "سعادة" بحق سعادة لها نهاية أو بداية؟

إن العمل الحركي -من مقترب أفضل- هو احتضان الإنسان للوجود كله بأصدق وأخلص القرارات، والتدقيق فيه، والسير من خلال المعابر التي فيه إلى اللانهايـــة، ثم إحلال دنياه في فَلَك غاية الخلقة الحقيقية مستخدماً الطاقة الكلية لذكائه وإرادته بالسر والقوة التي اكتسبهما من اللامتناهي.

إن الفكـــر عمل حركي داخلي. فالفكر المنظم والهادف هو التساؤل من الكائنات بذاتها عن المجاهيل التي تجابهنا في وتيرة الوجود، والاستماع إلى جوابها عنها. أو بتصريح آخر: فعالية الشعور الباحث عن الحقيقة في لسان كل شيء وفي كل مكان، بتأسيس قرابة بين ذاته والوجود كله.

إن روح الإنســـان يلتف ويتآلف مع العالم بالفكر وفي ظل الفكر، فيتعمق باســـتمرار في ذاته وداخل نفسه.. ويمزق قوالب العقل المعاش الضيقة ليفيض خارجاً، ويتحرر من الأوهام المنسلة إلى أغوار الروح.. يتحرر، فيوائم الحقائق التي لا تُزيغ ولا تُضل. وبعبارة أخرى، الفكر هو تفريغ داخل الإنسان من أجل أن يتســـع المكان للتجارب الميتافيزيقية في أعماق داخله بالذات. هذا هو أول مدارج الفكر. وأما المدرج الأخير في ذاك السلم فهو الفكر المتحرك.

إن حركية حياتنا الدعوية والفكرية هي حياتنا الروحية.. في حالٍ لا يمكن بـــه فصـــل حياتنا الروحية عن فكرنا الديني. فقد تحقق كل صراع من أجل الوجود والحضور، خاصة شعبنا، باللجوء إلى المعنى والروح الإسلامية.. وظهر بارزا بالأعماق التي يختزنها في ذاته كلما توجه إلى الإسلام، كما يتسامق البذر إلى الســـنبلة متى ما استقر في صندر التراب، وكما يتفتح البرعم حين يستقبل النور. هذا التوجه وبلوغ الذات، يحقق تنامياً وتوسعاً في الإمكانات المكنونة في كـــنهه، وضمانا لوجوده وبقائه. وكما يتحقق بالعبادة والذكر والفكر تقاسم القلـــب والروح لمستوى الحياة في عالمه الداخلي الذاتي، فإن احتضانه للوجود كله، واستماعه إليه "هو" في وجيب نبضاته، وإحساسه به "هو" في كل كلية لعقلـــه، يرتبط بشعور العبادة وجهد الذكر والفكر عنده. فمن البديهة أن كل

تصـــرف للمؤمن الحقيقي عبادة، وكل فكر منه مراقبةٌ، وكل كلام له مناجاةٌ وملحمةُ معرفة، وكل مشاهدة منه للوجود تطلّع وتدقيق، ثم كل مناسبة بأهل وطـــنه شفقةٌ رحمانية. وإن بلوغ هذا المعيار من الرحمانية مرتبط بالانفتاح على الأحاســـيس، فالمنطق والمحاكمة، ثم من المنطق والمحاكمة إلى الإلهام فالواردات الإلهـــية. وبإفادة أخرى، من العسير الارتقاء إلى هذه الذروة ما لم تمرر التجربة مـــن مصفاة العقل، وما لم يُسلّم العقل نفسه للفطنة العظمى وما لم يقع المنطق في حـــال الحب عينه، وما لم ينقلب الحب أيضاً إلى العشق الإلهي، فإن تحقق، فـــبهذا الـــنظر يكون العلم بُعداً من أبعاد الدين وخادماً له، والعقلُ طيفَ نور يصـــل بـــه الإلهـــام أينما يشاء، والمكتسبات التجريبية منشوراً يعكس روح الوجود... ويصدح كل شيء بصوت أناشيد المعرفة والمحبة والذوق الروحاني.

ولئن كان إنساننا -ببعض جماعاته- يحمل المشاعر والفكر بعينه، ويتقاسم - أو هـــو في وضع تقاسم- الحالة النفسية بعينها، ثم لا يتصرف تصرفاً إيجابياً بقدر ما ينبغي ورغماً عن هذه المفاصل المشتركة الواسعة، بل قد يقع أحيانا في انحـــرافات وسلبيات، فالجدير هو أن ينبش عن السبب في غياب الإيمان بمعناه الحقـــيقي. فتصرفات المؤمن الحق إيمانية التلون دوماً، وحركاته تدور في فَلَك الفكـــر أبـــداً، مهما كان القالب الذي يحصره، ومهما كانت المضادات التي يسحب إليها.

لذلـــك، ينـــبغي أن يستشـــعر وارثو الأرض الذين يخططون لإقامة عالم المســـتقبل، نوعَ العالم الذي يريدون إقامته، ونوع الجواهر اللازم استعمالها في إعمار هذا العالم.. حتى لا يضطروا هم بأنفسهم إلى هدم ما بنوه بأيديهم من

قبل. إن جذور المعنى وأصول الأسس لألف سنة من حياتنا -نحن- معلومة ومعروفة. وعلى مهندسي مستقبل الضياء أن يجهدوا في استخدام قوتهم الفكرية - إلى جانب دوافعهم الحركية - من أجل أن تنصت المحركات التاريخية التي ننشئ بها حياتنا الدينية والمِلّيّة إلى صوت الإسلام كرة أخرى، وتلتقط زاوية نظره وتجس نبضه وتستمع إلى وجيبه، بالاستفادة القصوى من المرونة والامتداد العميق والعالمية في إعلاء بناء هذه المحركات مع الحفاظ على الكتاب والسنة وصوافي اجتهادات السلف الصالح، وحسب مدارك العصر وأسلوبه. ذلك، حتى لا يعيشوا حياة البرزخ في طريق الانبعاث بعد الموت! وكل هذا يرتبط أولاً وقبل كل شيء بالابتعاد عن أثقال النفسانية ودوافعها كافة، والانفتاح على الروحانية، والنظر إلى الدنيا والعلم بها كصالة انتظار إلى الأخرى، وبإفادة أخرى، يتحقق هذا بتعميق الكمية في عباداتنا إلى النوعية، وبإطلاق النقص الحاصل في رياضية الأوراد والأذكار إلى الآفاق اللامتناهية بالنية والخلوصية، وبالمعرفة والاعتبار واليقين في دعواتنا ومناجاتنا وبثنا إلى الذات الإلهية الأقرب إلينا من أنفسنا. ولا يعي هذا المعنى إلا الذين يحسون الصلاة كالطائف في المعراج، ويستلذون من أداء الزكاة كحافظ الوديعة أو موظف التوزيع، ويعيشون الحج كندوة عالمية لتداول معضلات العالم الإسلامي، وفي أرضية يرصدون فيها نورانية ومهابة الروح والقلب والأبعاد الأخروية.

إن الشعور بكل هذه والإحساس بها، فمعايشتها في الحياة، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأطباء المعنويات القادرين على تشخيص بؤسنا الداخلي والخارجي ومداواته، وبمرشدين صادقين مشدودين إلى الأخرويات من غير انقطاع.

أولـئك المرشدون الذين يمتد عالمهم الفكري من المادة إلى المعنى، ومن الفيزياء إلى الميتافـيزيقا، ومـن الفلسفة إلى التصوف. فهؤلاء كانوا وراء أيام العمران المديدة حتى اليوم، وسيكون هؤلاء ممثلين لحركات الإعمار والإحياء الآتية غداً. وسيتحقق هذا التمثيل باستنباط نظريات حقوقية جديدة من مصدري الكتاب والسنة لمعالجة المستحدثات والتوقعات المستقبلية، وتزيين أفكارهم بآراء العالم الجديـد، وتطوير متلقيات فنية طازجة تلائم عالمية الإسلام وتركز روح الملّة وشـعورها في بؤر الإسلام وترتبط بأحاسيس التجريد، وعجن ثقافتنا الذاتية المستوعبة للدين والدنيا والموروثة من خزائن ألف سنة متصلة. فإن تمثيلا في هذا المسـتوى لقـادر في زمـن قصير على تحقيق تصدرنا للأمم الأخرى في العلم والفلسـفة والفـن وحياتنا الدينية، وتقويم وحدات الحياة كلها على الطريقة المثلى، وجعْلِ أبنائنا المتشردين المنفلتين في الشوارع - سواء الدارسين منهم أو الأمـيين- رجـالَ الغـد في الفكـر والصنعة والمعرفة والفن. فتتنفس الأزقة والشوارع هواء العرفان وكأنها أركان المدارس، وتصير السجون أوكاراً للعلم، وتـزين الخمائلُ البيوتَ كزوايا الجنة. وفي كل مكان يسير الدين مع العلم يداً بـيد، وينـثر احتضـان الإيمان والعقل ثماره في كل صوب، وينبت ويزدهي المستقبل في صدر الأماني والآمال والعزم بألوان وأفنان لا يضاهيها خيال "المدن الفاضـلة"، وتنشر التلفزيونات والراديوات والصحف والمجلات في جو الفضاء الفيوضات والبركة والنور، ويرتشف الكوثر كل قلب سائح في ربيع الجنة هذا ما خلا الذي كالرميم المتخلف من التاريخ.

سـيولد هـذا الـتكون الجديـد مـن قيمنا التاريخية وحضارتنا وثقافتنا

ورومانسيتنا... وستظهر هذه الحركة من الحالة الروحية لعصور مستمرة تحت الغـبن والقهـر والظلم من جهة، ومن جهة أخرى، من حماسة قلبنا المتشبع بالإيمان والمتحفز دوماً والمستعد للانطلاق في كل آن.

إن تحقيق هذه الرسالة الحيوية مرتبط قبل كل شيء بتحريك دبيب الأرواح الصـدئة في هـذه الأرضية الصدئة. ويبدو أن المجهود الدؤوب منذ خمسين أو ستين سنة قد نجح في زحزحة الصعاب. فيمكننا أن نئن مع الشاعر المُعَذَّب، إذ يقـول: "اضرب بالمعول يا فرهاد، قد مضى الكثير وبقي القليل..." التحرك الأول هـو تحـرك الروح. وهو يلقي السلام علينا اليوم أينما مضينا كأقواس الترحيـب المقامـة من أكاليل السماء النورانية، بنعومة السكينة ودفء غيمة الربيع. فلقد اقترب موعد احتضانه لوطن المظلومين والمغبونين والمقهورين كله، وصب وابل حنينه الرحيم زخاً زخاً.

وكـأن القوة - اليوم- قد انصهرت في قالب الحق واستسلمت له بعد أن ذاب معظمها. نعم، في وجود القوة حكمة... فلا يمكن حل مسائل كثيرة من غيرهـا. ولئن كان ضرر -وأيما ضرر- في القوة المنفصمة عن الحق والمنطلقة معاندة له، فإننا نحسب القوة المتحدة بالحق حقاً بعينه. والجرأة المنبثقة من توحد القوة بالحق حامية للمظلوم لا الظالم، ولسان ناطق للحق. والمهم بعد ذلك أن يمثل جند الفكر والعمل الحركي إياه.

وسـوف أعرّج إلى جند العمل الحركي في عالمنا في موضع آتٍ إن شاء الله تعالى.

إنسان الفكر والعمل الحركي

إنســـان الفكر والعمل الحركي هو رجل الانطلاقة والحملة الحركي المخطط الذي يقوم ويقعد على خفقان شد العالم بالنظام مجدداً، ويمثل حركة إقامة صرح الــروح والمعـــنى مـــن جديد بعدما آل إلى السقوط ومنذ عصور، ويُفسر قيمنا التاريخية كرة أخرى، ويستخدم بمهارة مكوك الإرادة والمنطق في الفكر والحركة، وينقش على قماش روحنا ومعنانا زخارف مستظرفة وجديرة تناسبنا.

فهـــو في خط الحياة الممتد على مدى فصولها من الحس إلى الفكر، ثم إلى الحياة العملية، يتنفس النظام دوماً، وينشغل بحس البناء والإنشاء أبداً. إنه وليّ الحـــق اللدني الذي يُعِدّ "قادة أركان" الروح ومهندسي العقل وعمال الفكر، بدلاً عن استخدام القوة المادية لفتح البلاد ودحر الجيوش، وينفخ بلا كلل نَفَس البناء والإعمار فيمن حوله، ويرشد أعوانه إلى سبل عمران الخرائب. وليٌّ للحق جياش بالشوق والشكر، استطاع أن يوحد إرادته مع المشيئة المطلقة، وأن يحول فقـــره إلى الغـــنى، وعجزه إلى القدرة عينها. إنه لا يقهر أبداً ما دام يستخدم مصـــادر قوته هذه كما ينبغي وبحس الإخلاص والوفاء لصاحبها. وحتى حين الظن بأنه قد هُزم، فستجده على رأس فوج آخر للنصر والظفر.

وقد تجد إنسان الفكر والعمل الحركي إبناً باراً للوطن، أو إنساناً حركيا ذا بُعد فكري، أو رجلاً متفانيا في العلم، أو فناناً مبدعاً داهية، أو رجل دولة، أو رجـــلاً يجمـــع كل هؤلاء فيه. وفي العصر الأخير ظهر كثير من رجال الفكر

والعمـــل الحركي يمثلون قسماً من هذه الصفات. فمنهم من سبق فكره عمله الحـــركي، ومـــنهم من تبارى فكره مع عمله الحركي، ومنهم رجال حركة فكرهم مكنون ومخزون.

رجـــال في اســـتقامة مديـــدة يشعون ضياء، منهم أحمد حلمي فيليبه لي، ومصــــطفى صـــبري، وفـــريد قام، ومحمد حمدي يازر، وبديع الزمان سعيد النورسي، وسليمان أفندي، ومحمد عاكف، ونجيب فاضل. ولا يسع المقام هنا حـــتى لذكر تواريخ الولادة والوفاة لهذه الكثرة من الأسماء المباركة. لذلك نمر سراعاً بعناوين نفرٍ من أبطال الحقيقة أولئك، حتى لا نتجاوز أغراض المقال:

أحمـــد حلمي فيليبه لي: ولد في مدينة فيليبة ببلغاريا. كان أبوه سفيراً. بدأ الـــتعرف على المعارف وعلى العصر بالدراسة في "سلطانية غلاطة سراي". ثم أقام في إزمير وتوظف في بيروت. وهنا اتصل بعناصر "تركيا الفتاة" فتبعه النفي والإبعاد إلى "فيزان". ثم دعي إلى استانبول بعد "المشروطية" (الدستور). فرفع رايـــة فكـــر "الاتحـــاد الإسلامي"، وإصدر مجلة بهذا الاسم لنشر أفكار هذه الجمعـــية... وبعـــد ذلك جريدة "الحكمة" اليومية والتصدي لجمعية "الاتحاد والـــترقي"، ثم مجلات وجرائد أخرى... والقيام مدة بوظيفة أستاذ الفلسفة في دار الفنون (الجامعة). ثم قتل بالسم في عمر يحسب على الشباب من قبل أعدائه الألداء الماسونيين بالظن الغالب.

إن الآثار والكتابات التي تركها رجل الفكر والحركة الذي ألقينا على حياته نظرة سريعة، لا زالت تنتظر دراساتٍ أكاديمية.

فريد قام: السيرة الوجيزة لرجل الفكر والذوق والبيان الفريد النادر الذي فتح عينه على الحياة العرفانية لاستانبول، كما يأتي:

أستاذ الفرنسية، والاستطلاع الفلسفي الذي أوقعه في قلق لمدة قصيرة، ثم اللجوء إلى التصوف في أحضان العناية الإلهية، فالاستقامة في الحس والفكر مجدداً. وبعد ذلك نشر أحاسيسه في مجلتي "الصراط المستقيم" و "سبيل الرشاد" ... والقيام مدة بوظيفة مدرس في "دار الفنون" و "مدرسة السليمانية"... والانتساب إلى "دار الحكمة الإسلامية" (هيئة من كبار علماء الإسلام)... والتعرض مرات إلى العزل من الوظائف والإعادة إليها، وإلى البأساء والضراء والمضايقات، والدوام في مسيرة الحياة بزهاء ألوانها ذات البُعد العقبوي حتى لقاء ربه وكما يليق برجل فكر وعمل حركي. إن هذه الحياة المبجلة لن يسعها مجلد واحد فينبغي أن ينهض من يُعّرف الجيل الجديد بهذه الشخصية المثقفة في هذا العصر من جهة امتداده العميق في "الواردات"، وذلك اعتماداً على ما كتب وما نُقل عنه.

مصطفى صبري بك: إنه ابن الأناضول الطاهر هذا، هو "إنسان الكفاح" بكل معاني هذه الكلمة. فنجد "شيخ الإسلام" مصطفى صبري رجل الكفاح والعمل الحركي مدرساً وأمينا لمكتبة السراي ومبعوثا (نائباً في البرلمان) ورئيساً للتحرير في مجلة "بيان الحق"... وعضواً في فرقة (حزب) الحرية والائتلاف، إلى ساعة تركه الوطن بعد "مداهمة الباب العالي" المعروفة. لقد عمل رجل الحركة هذا في خدمة الإسلام في بلاد المسلمين الأخرى متى ما اشتدت العواصف، وعاد إلى وطنه لمواصلة الكفاح هُنا متى ما سنحت الظروف... فيفتح صدره لخدمة

بلده كلما سنحت له فرصة، فيتقلد عضوية "دار الحكمة الإسلامية" و "المشيخة الإسلامية". ثم يغادر تركيا سنة ١٩٢٢ لآخر مرة إلى رومانيا وإسكجه، ثم مصر... حتى انقضاء عمره سنة ١٩٥٤... حياة أمضاها في كفاح مرير ومكافحة شديدة... حياة مباركة لأبن بار للوطن مشحونة بعذاب ثقيل ومتقلبة بين الصعود والنزول، تصلح موضوعا للعديد من رسالات الدكتوراه.

احمد نعيم بابان زادة: ولد في بغداد. أبوه باشا عثماني. نهل من معارف إستانبول مثل أقرانه. من مراحل سيرة هذا الإنسان الأفق، الغني والواسع في عالمه الحسي والفكري: مدرسة "سلطانية" غلاطة سراي، مدرسة المُلْكية (الإدارة والسياسة)، فالتعيين في قلم الترجمة في وزارة الخارجية ومدير التدريسات في وزارة المعارف وعضوية دائرة الترجمة وتدريس الأدب في دار الفنون وعمادة كلية لمدة وجيزة...

إن أحمد نعيم نبع مهم ارتشف منه المجتمع التركي فكراً وروحاً... وترك من خلفه ميراثاً غزيراً من العلم والعرفان للأجيال القادمة.

محمد عاكف: الابن البار والمخلص لهذا الوطن غني عن أي تعريف. كُتِبَت عنه المجلدات من الأبحاث وتحدث عنه الخطباء. وسيكتب ويقال بلا انقطاع عن إيمانه وعشقه وفوران مشاعره وعمله الحركي وقضيته وفكره. هو من نوادر المثقفين الترك الذي ساحوا في الأناضول وروم ايلي (الممالك العثمانية في أوروبا) وبلاد العرب. وكان حيث ما حل صوتا لشعب مجيد، لكن منتكس المآل، مليء بالحسرة والهجران، ونَفَساً ينفث الأنين، وتوجساً مبثوثا فيما حوله. من قلائل الناس الذين حافظوا على خط توجههم بهذا الالتزام العظيم.

كـان مخلصاً ووفياً في مراحل حياته كلها: بيطاراً ومفتشاً ومدرساً للآداب في دار الفنون وباذلاً جهده في فريق "الصراط المستقيم" ثم "دار الحكمة الإسلامية"، ثم خطاباته في سنوات حرب الاستقلال.

عاش ابن الوطن ذو الصوت القوي، زاهداً كزهد صحابي جليل، ورحل إلى العقبى فقيراً. وهو ينتظر أياما عابقة بالوفاء من الأكاديميين بالبحث والتمحيص عن جوانب فكره وعمله الحركي وفنه، مع حفظ الشكر للجهود المبذولة في هذا الشأن حتى الآن.

محمد حمدي يازر: قامة مرفوعة معلومة للعالم. بعدما حصل على العلوم الابتدائية في "ألمالي"، من نواحي الأناضول الصغيرة، توجه إلى العاصمة إستانبول "لإكمال النُسَخ" حسب المصطلحات في درجات العلم. تتلمذ على يد مشايخ بصورة خاصة، ثم "امتحان الرؤوس"، ثم "مدرسة النواب"، ثم مدرساً في "مدرسة الواعظين"... ومرتقياً إلى "الدرس العام". ثم مبعوثاً (نائباً في البرلمان) على اثر المشروطية... والتوقيع على فتوى يجيز خلع السلطان عبد الحميد في خطأ اجتهادي... وعضوية دار الحكمة الإسلامية... ووزيراً للأوقاف... والوقوع تحت طغيان محاكم الاستقلال في العهد الجمهوري، والانزواء الطويل بعد النجاة من غضب هذه المحنة بفلتة أدق من الشعرة، ثم تصنيف ذاك التفسير الأشم. هذه خطوط عريضة منتقاة من سيرته.

إن العلامة حمدي يازر من الشخصيات البارزة التي ينبغي أن نتوقف عندها مليا باسم حياتنا الفكرية وعملنا الحركي.

نجيب فاضل: جذور عائلته في "مرعش" من حواضر الأناضول. لكنه وجيه مشبع بتربية إستانبول وآدابها، ولد فيها وعاش فيها حتى وفاته. الكلية الأمريكية والمدرسة البحرية كانتا ملء سندانتين من التراب ذي قوة إنباتية يحتضن هذه القابلية الفذة وكومتين صغيرتين للوثبة الذاتية. ومن المنازل التي نزلها ثم رحل عنها سريعاً: قسم الفلسفة في دار الفنون. وسوربون باريس منفذ صغير للاطلاع على الغرب. ولم يستسغ وظيفة مفتش في البنك فكأنه فيها بائع متجول، فغادرها. أول دارٍ نَفَخ فيها روح الفن في كل صدرٍ موهوب أو غير موهوب هي كونسرفاتوار الدولة (معهد موسيقى الدولة) وأكاديمية الفنون الجميلة. إنه صاحب المدرسة الفكرية: "الشرق الكبير"، المسماة باسم الدورية التي أصدرها مرات، كلما منعت من الصدور أعاد إصدارها، وكلما صدرت أغلقت بالمنع عن النشر، بإرادة قوية تدفعه إلى المثابرة في التخطيط للصدور أثناء المنع. فهو بانيها ومهندسها وصاحبها المثقل بالعذاب والبأساء والضراء... وهو أحد أفذاذ أساتذة الشعر والنثر ومهندسي الفكر المستقبلي في العصر الأخير. وإن غوصه في الفكر الصوفي، وعمقه في الميتافيزيقا، وتوقيره المتين في عمره كله للحقيقة المطلقة، واحترامه الفائق وتوقيره المكين إزاء سيد الأنام ﷺ، هي قطرات صغيرة من بحره الممتد إلى الآفاق. وإن تعريف جيل الشباب التركي والعالم كله بهذا الإنسان العملاق وبتوجهاته كلها، والتي ألمحنا إلى بضع قطرات منه هنا، إنما هو مقياس قدراتنا على استشعار العظمة عند الآخرين. بل آمل من أهل التوقير أن يؤسسوا معهداً لدراسة نجيب فاضل.

سليمان أفندي: سليل عائلة أصيلة في سلسترة. شيخ وابن شيخ. عاد إلى بلدته التي ولد فيها "مدرساً" بسائق الوفاء الخالص بعدما أنضج غناه الروحي في آفاق عرفان استانبول. وتتوسم عائلته التي تعلق عليه آمالاً عظيمة خيراً في طلابه المتحلقين حوله، وفي إخلاص ووفاء أخلائه وإخوانه، فترى فيهم رسالته ومستقبله، وتبتسم لمن يلحق بهم من بعدهم.

سليمان أفندي رجل كفاح قل مثيله، ممن لا يعرف الكلل في عمله الحركي. فكان في عمره كله منافحاً صادقاً وثابتاً عن فكر أهل السنة والجماعة. فهو داعية الكفاح الشامل وليس الكفاح في خط الدفاع، في عصر تعرض الحس والفكر الديني إلى هزات متكررة... فنقش الشيخ الفكرَ الديني مع الحس التاريخي في نسيج أرواحنا نقوشاً بديعة... واجتهد في إشباع قلوبنا من أصول وجودنا بالدورات التعليمية ومساكن الطلبة وبيوت الإقامة في كل أنحاء البلاد، فلم ينِ و لم يفتر عن غايته هذه ورسالته حتى رحيله إلى حيث يطير الأرواح والروحانيون.

ولست أزعم أن أسطراً أو صفحات قادرة على تعريف رجل الحركة العظيم هذا... بل ولا المجلدات من الكتب تستطيع الإيفاء بحق إنسان الروح والمعنى، هذا الذي زان أرجاء البلاد من "أدرنة" إلى "أردهان" بالعلم والعرفان، وفي مدة قصيرة، وراغماً أنف العوائق. فنفتح هنا وليجة ضيقة، ونأمل أن يتوسع الباحثون والأكاديميون المنشرحون بالمعاني، فيفتحوا الأبواب على مصاريعها في تدقيق رسالة هذه الشخصية الفذة وعمله الحركي وفكره وفلسفة خدمته.

وعندما نفكر في مُنَوّري النصف الثاني من القرن العشرين، هل يمكن أن لا نـتذكر نورالديـن طوبجـي، ابن الأناضول ذا العقل الولود وإنسان العشق والحمـاس مـع الـتحفظ عـن بعض مطالعاته التي لا تنسجم مع معاييرنا الأساسـية... ولا نلتفـت جـيداً إلى سزائي قاره قوج، العقل المميِّز والفكر العميق، المنتظر لإفراخ البيوض بصبر حواضن القُنّ، الهادئ هدوء المرجان على آلام جـراحه الدامـية في سـيره المتواصل، شاعر العصر وناثره العظيم الذي سـيقرؤه أبناء الأجيال الآتية في شغف... أو لا نتوجه بالشكر والامتنان إلى أسعد أفندي... أو لا نستشعر الوقار أمام سامي أفندي، أو لا نتحسس العشق والحمـاس والعمل الحركي في معالي مسلك الخدمة لحضرة الأرواسي، وعلي حـيدر أفندي، ومحمد زاهد قوطقو، وإمام "ألوار" ، وسيّد "سردهل"، ومحمد راشـد أفندي من "منـزل"... ثم هل يعقل أن لا نذكر بديع الزمان النورسي خاصـة، وهو الذي قلب مخططات دنيا الكفر والإلحاد رأساً على عقب بإيمانه وفكره وعمله الحركي المدهش؟

لقد كتب وقيل عنه الكثير الكثير. العالم كله يتحدث عنه. وهو من الأوائل الذين يحوزون على أكثر عدد من القراء في العالم وبلغات عديدة. لذلك، لا نجد ضرورة ملحة للتعريف به، فنكتفي بإدراج مطالعة وردت في تقديم كتابٍ له:[1]

بديـع الـزمان سـعيد النورسي: عَلَمٌ ينبغي التفكير فيه باعتناء وتعريفه للإنسـانية بأبحـاث مستفيضة، فهو رجل العصر الأول الذي أبرز إيمان العالم الإسـلامي ومعنوياته وعمقه الوجداني الفسيح، وبصورة صافية ومؤثرة. ولا

---

[1] يراجع تقديم كتاب (المثنوي العربي النوري) لبديع الزمان سعيد النورسي.

نحسب أن مقتربات الملاحظات العاطفية لفهم شخصيته وأفكاره مقتربات سليمة لمعرفته ومعرفة تراثه وآثاره. فالعواطف لا تتآلف مع جدية المسائل العالية الزخم التي أظهرها وأبانها بشجاعة عظيمة في كل زمان وآن. فقد عاش حياته كلها إنسان محاكمة منطقية وعقلية، في ظل الكتاب والسنة، وبموازين التجربة والمنطق، في حال العشق والحماس العميق.

لقد دبجت الأقلام كتباً، وأطلقت الألسن خطاباتٍ كثيرة عن حقيقة الفكر العالي لبديع الزمان النورسي، وسعته الإنسانية، ووفائه، وإخلاصه لأخلائه، واستعفافه، وتواضعه، ومحويته، واستغنائه. والحقيقة أن كل خصلة من هذه الخصال التي يتصف بها ويتطرق إليها في رسائله مراراً وتكراراً، تستحق كتاباً مستقلاً بذاتها. ويشهد على أحواله هذه عدد كبير من أصدق الشهود الذين سعدوا بالعيش قريباً منه، ولا زالوا أحياء بين ظهرانينا كأنهم كتب شاخصة متجولة.

يبدو بديع الزمان إنساناً بسيطاً وعادياً من الناس في مظهره الخارجي لأول وهلة. لكنه يختزن شخصية راسخة قلّما تتوافر في غيره أو في كل زمن من جهة حياته الفكرية وعمله الحركي. فقد كانت تصرفات عادية بالنسبة إليه أن يحتضن الإنسانية جمعاء في المسائل الحيوية للإنسانية، ويمتلئ بغضاً وتقززا ونفوراً على الكفر والظلم والضلالة، ويحارب الاستبداد أنّى كان، إلى درجة الاستخفاف بالحياة لهذه الغاية بوفائه ومروءته وترحيبه مستبشراً بالموت. عاش إنسان حسٍ رحيب، ملتزماً في رسالته ودعوته بِفَلَك الكتاب والسنة لا يغادره، متلونا بألوان المحاكمة العقلية والمنطق. لقد اتصف في كل وقتٍ بصفتين ظاهرتين، الأولى: صفة كونه رجل وجدان رحيب، ومثال عشق وحماس

أصيل، وإنسان شهامة ومروءة عظيمة. والثانية: صفة كونه مفكراً متوازنا غاية التوازن، يتقدم على معاصريه أشواطاً في الرأي والبصيرة، وصاحب عقل سليم ينتج خططاً وبرامج شاملة. فالاقتراب إلى بديع الزمان ودعوته من هذه الجهة، مقترب مهم لفهم ما يعنيه لنا في عصرنا الذي نحن فيه باعتباره امتداداً لسلسلة عظماء الإسلام.

ومهمـــا تغاضى بعضهم أو تناسى، فقد لقي بديع الزمان قبولاً بأنه مفكر وكاتـــب بزّ أقرانه المعاصرين له، وصار رائداً وترجمانا لجمهور الناس، لكنه لم يصب بالعُجُب قطعاً، ولم يمل إلى الظهور والرياء، ولم يقرب منه الكِبْر. فمن بـــياناته الذهبـــية قوله: "الشهرة عين الرياء وعسل مسموم يميت القلب". لقد دخـــل الـــتاريخ واحداً من المعالم في العالم الإسلامي، والعالم كله في الوقت الحاضـــر، الذين يرتقون الدرجات العليا في سلم الكُتّاب المشهورين والمقروءة كتبهم بشغف في كل وسط وزمان، والذين لم يذبل غصن جدهم.

إن مصـــنفات بديع الزمان كلها ثمرة جهد جادٍ ودؤوب من أجل توضيح مسائل ومشكلات معروضة على الرأي والنظر في العصر الذي صنفت فيه -إذا أطللـــنا عليها من هذه الجهة-. فمن بين سطورها ينبعث صوت الأناضول، ثم العـــالم الإســـلامي، حيناً نشيجاً ونحيباً، وحينا أملاً وشوقاً وطربا. ولئن كان النورســـي قد ولد في قرية قصية من أصقاع شرقي البلاد، فإنه أحس في نفسه بمشـــاعر ابـــن الأناضـــول أبداً، وتنفس مشاعرنا وأحاسيسنا كسيد من أبناء اســـتانبول، واحتضـــن الوطن جمعاً وكلاً في كل وقت وزمان، بشفقة رحيبة وخلوص شاخص وطري.

لقد أرشد بديع الزمان إنساننا المترنح برجّةٍ تصيبه بعد رجّة، إلى السبل الموفية إلى نبع "الخضر"، ونفخ في جموع البشر هواء "الانبعاث بعد الموت" أينما رحل وحطّ، في زمان شؤم أوقع الفكر المادي فيه حياتنا الفكرية في تشتت الهرج والمرج، وجن فيه جنون الشيوعية، وسقط العالم في أسوأ أيام الضياع والظلمات والمحن. وذلك بمصنفاته التي تفوح منها نفحات الإيمان والأمل. لقد استشعر وشخص الداء الأعظم قبلنا وقبل الناس جميعاً، ألا وهو الفوضى الناشئة من الكفر والإلحاد، فتصدى لها. لقد نفث في إنساننا طوال حياته ضرورة التغلب على وباء العصر هذا... وكافح في سبيل ذلك كفاحاً فوق طاقة البشر. كان بديع الزمان في أوعى حالات الإدراك لواجباته الملقاة على عاتقه، عندما جابهه عالم ينشج في حمى ثقيلة الوطأة. فلما حمل حملاً أثقل من جبل "قاف"، أحنى ظهره في غاية حال من التواضع والمحوية، وفي استحياء. ولكن في غاية الثقة بالقدرة المطلقة للحق تعالى وغناه اللانهائي.

فإن بديع الزمان -وبأدائه كالطبيب الحاذق- ذكّرنا جميعاً بالزنزانات التي في دواخلنا وأنواع المحكوميات في أرواحنا، وجرائمنا الذاتية وتقييد ذواتنا بأنفسنا، ونفخ في قلوبنا المشتاقة إلى العلويات أنفاساً متوالية بتحريك جوانبنا الإنسانية الخامدة من عالمنا الروحي وحياتنا الوجدانية، ونشر أمام الأنظار علاقاتنا الوطيدة المغزى بالأخرويات، وصب فوق رؤوسنا جميع واردات التكايا والزوايا والمدارس... في أيام نحسٍ سوداء سيق البشر فيها إلى الإلحاد بالاستغلال السيء للفنون والفلسفة، وتعرضوا إلى "غسيل الدماغ"! بالشيوعية، وأُبعد المتصدون لهذه السلبيات في البلاد نفياً وتغريباً، وأشيع في أرجاء البلاد أشد الخيارات المخجلة،

والباعث للحيرة أن كل ذلك جرى باسم التحضر "والعصرنة"، حتى غدت "العبثية" (Nihilism) سحر العصر الساري كالنار في الهشيم.

نعم، قد صار النورسي طبيباً حكيماً، مفكراً، وباحثا عن الحلول، وفاحصاً ومشخصاً، ثم واصفاً دواء هذه الأمراض، لزمن الفتن والهرج، كان الشعب فيه يعيش حمى الضعف الفكري والهموم الاجتماعية، ويُسَلَّط عليه مئات الحوادث المرعبة في أنحاء الوطن كافة، ويئن تحت ركام القيم الإسلامية والمليّة التي تهدمت فوق رأسه. فهو رجل عاش منذ البداية مشدوداً دائماً، مفكراً، مقدماً الحلول البديلة للدولة والمجتمع، ساعياً في تلقين هذا الشعب المجيد لكن الفقير حظاً، وهذه الدولة الشامخة لكن الآفلة طالعاً، دروس ماضيه الرحيب والغني، إذ يرى حيرة الأجيال المسكينة المضطربة قلقاً تحت المصائب والنكبات المهولة التي أعدتها السنون السوداء الطويلة وجهزتها لها، فتتخبط في وديان العجز والضلالة والشك، وكلما أرادت الخلاص دفنت نفسها في أوحال أزمات أعمق... يرى حيرتها، ويستشعرها، ويصغي إلى صوت ما يراه وما يستشعره.

ساح بديع الزمان في أرجاء كثيرة من البلاد منذ عهد الدولة العلية العثمانية، بمدنها الكبيرة أو قراها القاصية، وبنواحيها التي تعج بالبشر أو مناطقها القليلة أنفساً، فرأى حيثما حل سريان الجهل في الناس وتضورهم في الفقر وحد الضرورة، ونهشهم وإفنائهم لبعضهم بعضاً بأنواع التفرق، فخاف وذعر. فأراد أن يشحن تلك الجموع التعيسة بروح العلم، باعتباره مفكراً واعياً بأحوال العصر. والتفت إلى معضلة الفقر والحاجة والاقتصاد. وبحث عن حلول التفرق وصار داعية يتنفس وحدتنا في كل زمان وبلا توان... ولم يترك شعبنا وحيداً

لحظـــة واحدة في تلك الأيام العصيبة الكأداء. كان ينادي بأعلى صوته حيثما حل: "سوف تؤول أمراضنا إلى أسقام مزمنة، وجراحنا إلى عطب لا يبرأ، إن لم نـــبادر مـــنذ الآن إلى معالجـــة عللنا، وضماد جراحنا على أيدي حكماء حاذقين. فلا بد من تشخيص عللنا العلمية والاجتماعية والإدارية، وحل عقد مشكلاتنا المادية والمعنوية كلها، حتى لا نقع في مضايقات تسحبنا كل يوم إلى المهاوي الشنيعة التي تمضغ وجودنا وتهز كياننا من الأساس".

فالنورسي يرى مصدر المفاسد كلها - بالأمس كما اليوم - في الجهل والفقر والتفرق. الجهل هو أول الأسباب لمآسينا الاجتماعية ومقدمة الدواعي إلى بؤسنا الســـائد فلا شبهة في أن أعظم مصائبنا -أمس واليوم- هو الجهل بالله وتناسينا للـــنبي ﷺ وتـــرك روابطنا بالدين والتعامي عن محركات تأريخنا المادية والمعنوية. ولقـــد جعل بديع الزمان حياته وقفاً لمحاربة هذه الجراثيم القاتلة. فلا جدوى -عنده- في انتظار خلاص الشعب ما لم تُنوِّر جموع الناس بالعلم والعرفان، وما لم يـــتعود المجتمع على التفكير المنظم، وما لم توصد الأبواب بوجه تيارات الأفكار الخاطئة والمنحرفة. أليس الجهل هو الذي فك روابط الكائنات بالقرآن، وروابط القـــرآن بالكائـــنات؟ وبفك روابطهما جعل أحدهما يتيماً في زنـــزانات خيال النفوس المتعصبة، الجاهلة لأسرار الوجود والمنحبسة في الأشياء والحوادث، وجعل ثانـــيهما عبثاً وفوضى في أيدي الجاهلين جهلاً مكعبا، الباحثين عن كل شيء في المـــادة، والعمين تماما عن المعنويات. ثم أليس الجهل هو الذي أبكى هذه الأرض المـــباركة نحيباً في قبضة الفقر والبؤس وجعلها متسولا يستجدي خدام الأبواب القدامى، وهذه سهولها المنبتة وسهوبها الفياضة وأنهارها الكوثرية؟

ثم، أَلسـنا بسبب الجهل والفقر نعيش بؤساء ومشردين، وفي شَدَّهِ الديون الرهيب، محنية ظهورنا وطاوين على بطوننا، وتلك معادننا التي لا تقدر بثمن نائمة في سكينة تحت التراب، ومصادر ثرواتنا التي لا تعد ولا تحصى، تصب في خزائن غيرنا؟

هذا البلاء يعذب شعبنا منذ سنين طويلة... فالعامل والفلاح يكد بلا كلل وينسحق رهقاً، ثم لا يجني ثمار كده وكدحه. وإن جنى شيئاً فلا يجد فيه بركة، ولا يسعد بها، ويتوارى شيئاً فشيئاً قهراً وشقاء.

وبسبب الجهل والتفرق المنبعث من الجهل، يعيش العالم الذي يرتبط بنا وحيثما كان، حياة من القهر والأسر والتحكم والذل وأنواع البلاء والأمراض، ويغـرق في بحار الدم، وتنتهك فيه الأعراض ويداس على الشرف، ويعجز عن كـبح جمـاح الفرقة وإعطاب عجلة الفواجع والفضائح في تقلبه ذات اليمين وذات الشمال في هذا العالم المترنح في شِباك فقدان الموازنات والمعايير... بل لا نجد وسيلة لخلاص العالم الإسلامي من التدحرج يوما بعد يوم إلى مهاوٍ مهولة وبئيسة، ولا نتحفز بروح الوحدة، ولا نصفي حسابنا مع العصر.

إبّان تجرعنا الآلام في فخ الأوجاع القاهرة المتسلطة على شعبنا، تداعى قومٌ خَلَـبَ أبصـارهم بـريق رقي الغرب الصوري والمادي، فتكدرت بصائرهم ودارت رؤوسـهم، فجـردوا جموع البشر من السجايا "الملّيّة" وحرموهم من حـس التاريخ وسلبوهم الأخلاق والفضيلة، لهثاً وراء تقليد أعمى وشعارات خداعـة، بتصرفات لا جذور لها ولا روح فيها البتة، بدلاً عن إمداد أدمغتهم بـالعلوم التجريبية، وقلوبِهم بالحقائق الدينية، بلوغاً إلى الغنى المادي والمعنوي.

وعندي أن سيرهم في الطريق الأول الذي انحرفوا إليه باسم إنقاذ الشعب، أوقع الضرر الأعظم وفتح في روح المجتمع جرحاً لا يندمل.

ففـــي الحـــال الثاني المذكور آنفاً قد يطول المكث الأليم في كابوس خانق ســـنين وسنين. ولكن باختيار الحال الأول هوى وانهار صرح فضيلتنا "الملّيّة"، ونجابتنا الروحية، وعملنا الحركي ذي الاحتواء العالمي.

لقـــد واجـــه بديـــع الزمان المعالجات في كلا الحالين وتصدى للتعقيدات الاجتماعـــية الـــتي خلفتها أخطاء هذه المعالجات، وشق بمبضعه أورام قرن من الزمان، وشَرّح وشخص الفواجع الناجمة من احتقان قيحها. فأعاد ابن الوطن البار هذا، وكرر بلا فتور قولاً وكلاماً ثابتاً، وحمل على أدوائنا بلا كلل حملة دائمـــة لا تضـــعف، ووصف لها أدوية ناجعة، من أجل إنقاذ الوطن وخلاص إنساننا من السقوط والضياع. فلم يتوان عن ذلك طوال حياته من بدايتها إلى وقت لقاء مولاه الجليل في "أورفة"، بصدق وإخلاص قلبي، وبصوت جهوري وقـــول متين. إن غرس أفكار جديدة في عقل المجتمع عمل شاق وعسير بقدر انتزاع العادات والتقاليد الموروثة من الماضي بنفعها وضرها والمفاهيم والمتلقيات الراسخة. وفي جموع البشر ميل دائم في الماضي والحاضر إلى الوقوع في مؤثرات أمـــثال هـــذه التركات -سواء النافعة منها أو الضارة- فتصطبغ الحياة الفردية والاجتماعية بصبغة هذه المؤثرات، وتشمئز مما لا ينسجم مع المعتاد ولا يداعب الحس العام، فينفرون مما يخدش حسهم ويبتعدون عنه. وقد يخطئ هذا الحس أو الشـــعور أو القـــبول أحـــياناً. فـــإن كانت مثل هذه الأفكار والقناعات غير الصـــحيحة قـــد وجدت رضا وقبولاً عند الجمهور والجموع البشرية، وتمثلها

المجتمع بطول المعايشة، ومدت جذورها وتنامت أغصاناً وفروعاً في منابت الحياة واستقوت، فاللازم لتقدم الشعب نحو المستقبل أن تُهدم هذه القناعات الخاطئة، وأن تُزال هذه الانحرافات الاجتماعية، وأن تُنظّف القناعات المتعفنة بتمرير الأفكار العامة ووجدان البشر من مرشحات التخلية والتحلية، من الحَسَن إلى الأحسن، بمعنى التصفية من كل فاسد والتزود من كل صالح.

وهكذا كان بديع الزمان النورسي منذ أيام الشباب في مشاعره وأفكاره. فعَدّ إخفاء أدنى حقيقة في هذا الباب غدراً بحق وطنه وإنسانه، وفتح ذراعيه بطولهما حاجزا أمام الأفكار والقرارات الخاطئة المودية بالشعب إلى مهاوي النكبات، ونادى بأعلى صوته صارخاً: قفوا... هذا الطريق مقطوع! كانت فطرته متحيزة انحيازاً كاملاً ضد كل خطأ أو كل ما يناقض القيم الدينية. وكان صاحب أفق مديد وذا همة من أهل العزائم. فغضُّ الطرفِ عن فناء أمة عظيمة واضمحلالها، واللامبالاة بذلك، يناقض ويضاد طبائع هذا الإنسان الطاوي صدره على قلب أسد. فأرشد الأمة إلى محاسبة نفسها بعد تسليط الضوء على أدق وأخفى نقاط قصورنا ومعايبنا وأسباب مصائبنا ونكباتنا. فذكرها من غير ملل بأسباب انقراضها ووصف لها سبل الخلاص، وأبان جهاراً أشد الحقائق إيلاماً من غير تلكؤ... وحَمَل بِخَيْله على القناعات الخاطئة والأفكار المتعفنة والكفر والإلحاد... وكافح بلا هوادة وطوال حياته مقاوماً عوائق انتشار أنوار الحقيقة جميعاً.

لقد انبرى النورسي في أحلك العصور، إذ أحجم الناس عن ذكر الحقائق الدينية توجساً وخيفة، فشحن جموع البشر باليقظة لما أرادوا لهم الغفلة، وأعلن

الحرب على الجهل والفقر والتفرق، وزعزع أركان أنواع الأوهام التي جثمت عـلى صدر المجتمع، ومارس كفاحا على طول البلاد وعرضها وليس في خط الدفاع فقط ضد الإلحاد وإنكار الألوهية، وكذلك، خنق الباطل والخرافات في إشـكالاتها المنغلقة. وأبدى دوماً جرأة مدنية سلبت الألباب إعجاباً في إشهار همومـنا المزمنة وسبل معالجتها. لقد أُشْتُهر أن "آخر الدواء الكي". فكأنه في مجالدتـه للـرياء وحـب الظهور والكبر المستفحل منذ قرن أو قرنين وسَمَهَا وكواها بالساقور، فخاطب بقول ثرٍ وندي وَجَد صدى في روح كل إنسان، يسـتوي في ذلـك رجـل السراي ورئيس عشيرة في شرق تركيا، والمشيخة الإسـلامية وأركـان العسكرية. فلما خاطبهم شدّ إليه أنظار الناس من كل صـنف. ومع أن جبِلّته تنفر من ذلك أشد النفور، فإن طبائع شؤونه وأموره استدعت ذلك الالتفات.

نبّه النورسي كل فئة إلى ضرورة كسر الأغلال الآسرة لأفكارنا وأرواحنا، قبل سل السيوف من الأغماد، إن أردنا دوام الجهاد... وأرشد الأجيال الفتية إلى السـبل الموفية إلى الفكر الإسلامي في بشرى "الانبعاث بعد الموت". فكان يخشى ويرتعش فزعاً من انقسام جغرافية الوطن وتمزقها وانكماشها، لكنه كان أشد فزعاً من أمور تؤدي إلى تلك السلبيات مثل ضيق التفكير وبؤس الأرواح وتقليد الغرب والشكلية.

لم يمـلّ النورسـي من الإصرار على القراءة والتفكير والعمل، ولم يكلّ من السـعي لأجل إنقاذ أفراد الشعب من الفردية المتبادلة وبناء مجتمع مثالي وشعب عامر. فكان يلح على "المعارف" و "التربية والتعليم". فيحث بالضرورة على نشر

المعـــارف والتربـــية والتعليم في كل مكان وبكل وسيلة... فينبغي عنده انخراط المســـاجد والمدارس والمعسكرات والدروب والمتنـــزهات، بل حتى السجون، في نفـــير التعليم العام. فبالمعارف وحدها تتحقق الوحدة العقلية والمنطقية. فالذين لا يتوحدون عقلاً بعقل، ولا ينصهرون على ذلك، يعجزون لا محالة عن السير معاً في طريق معين زمناً طويلاً، ولا يحفظون تساندهم وتعاضدهم. فينبغي أن يتوحد الوجـــدان أولاً. حتى تتوحد القلوب والأيدي. ووسيلة وحدة كهذه هو ضبط الحـــياة بضوابط الدين وتفسير الأمور المتعلقة بالزمان حسب مدارك العصر مع التقيد بالكتاب والسنة والاجتهادات الصافية للسلف الصالح.

نعـــم، لا بد من أن يتعرف إنساننا بهذا العصر، وبواردات العصر ومعانيه وتفســـيراته، وأن يـــنجح في ذلك ويتواءم معها. فإن مقتلنا في انحسارنا داخل قشـــورنا واستغراقنا في الانـــزواء، والدنيا تسير سابلة الزمام. فلابد أن يمسك الذيـــن يـــريدون أن يحـــيوا حاضرهم بحبل الانسجام والوئام والتعاون ما بين شلالات الحياة، وبين إرادتهم الذاتية وسعيهم وجهدهم. وبخلاف ذلك، لا مفر من الاضمحلال في حال مقاومة التيار العام في الكائنات.

ولـــو تفهم عدة مئات من المثقفين بديع الزمان وأعانوه، عندما كان يسعى حثيثاً ويلهث ركضاً في كل ناحية من أرجاء البلاد، عارضاً رسالته، فربما كنا الـــيوم أغنى من كل دولة، وأسبق شوطاً في الحضارة بين الأمم، وربما بلغنا قوة كانـــت تؤهلنا لاجتياز العراقيل التي وضعت في طريقنا لاحقاً، فكنا انخرطنا في طريق النور -الذي يبدو كأننا انخرطنا فيه الآن- منذ بداية القرن العشرين، ولم يكـــن الكثير من مشاكلنا الحالية تواجهنا اليوم. مع كل هذا، لا زلنا متفائلين

وأنـــا أجزم بأن الذين يزعمون أن منابع المعاني لشعبنا قد نضبت تماماً هم في غفلـــة وذهول. نعم، قد سقطنا مثلما سقطت شعوب أخرى... هذه حقيقة ظاهـــرة لا يمكن أن تخفى. لكن قدرتنا على رفع هامتنا واستعادة وعينا أيضاً حقـــيقة لا شك فيها. ونرى في الحاضر بوارق لمعان اليقظة تحل محل الركون القـــديم إلى الـــراحة. فثم حرارة للحيوية الندية والانبعاث الطازج تسري في أرواحـــنا الغارقة في أحضان الراحة والخمول. ولابد أن يعقب هذه التطورات ربيع زاهر الأيام. لكننا في انتظار رجال يسيحون فيفرشون الوديان بالسجادات كالخِضْـــر، ويفـــتحون الأشرعة في السهوب بلا وجل كإلياس. وبديع الزمان علامة مهمة في هذا الطريق.

يقـــال "إن العبقري لا يَختار". والمعنى أن الداهية لا يقول أعملُ هذا ولا أعمـــلُ ذاك، أو يحكـــم بأن هذا العمل مفيد وذاك ضار. لأنه صاحب فطرة خارقـــة يجمـــع في روحه قوى تتحمل فوق أكتافها أموراً كثيرة بموهبة إلهية وبسائق وشائق لدني، فيحتضن بها حاجات محيطه الظاهرية والباطنية والروحية والاجتماعية بأعمق أغوارها وأوسع حدودها. ومن يمحص النورسي ومصنفاته سيجده جامعاً لعناصر الدهاء. فيرى أنه صان رفعة درجته فوق الدرجات دائماً وتكـــلم بدهـــاء في كل زمن، ابتداء من أيام شبابه في كتبه التي تُعدّ من أول أنفـــاس دهائه، بثها فيمن حوله، إلى مصنفاته التي انكشفت وتكاملت في عمر النضوج عبر حياة معذبة مرت بالمحاكم والسجون والمنافي.

نحو عالمنا

لا يخفى على نظر المتبصر تداخل الفكر والعمل الحركي ببعضهما في وقائع التاريخ العظيمة. تداخل يتربى ويتبرمج فيه العمل الحركي بالفكر من جهة، وتهيئ فيه الحركة والجهد الحركي أرضية لأفكار وبرامج جديدة من جهة أخرى. فكأنّ الفكر -بهذا المعنى- سماء ومطر للعمل الحركي، أو فضاء وهواء له، وكأنّ العمل الحركي أرض وسندانة للفكر، أو تراب وقوة الإنبات فيه. فلا أحسب هذا الأداء المتقابل بينهما غلطاً. ذلك بأن كل جهد حركي هو تحقق فكر وبرنامج، وكل فكر هو بداية ووتيرة للعثور على أطره الحقيقية وبلوغ مراميه في ثنايا التحركات الملتزمة به. إن المرحلة الأولى للإرادة هو ميل داخلي، وَحَدُّها النهائي هو العزم والقرار والهمّ بالعمل. والفكر في هذه الوتيرة كخيوط لفائف تلقى من المبتدئ لتتعلق بالمنتهي، والأعمال الحسية كنقوش تزين هذه اللفائف. وإن التصرفات من غير فكر أو برنامج تؤدي في الأكثر إلى الفشل والفوضى، وإن الأفكار الجامدة من غير حركة، تعيق تشكل الأنموذج الذي يُعدّ البعد النهائي للفكر، وتُصَدِّع روح الإرادة.

إبّان تقدمنا إلى عصرنا الحاضر، حُجبت أنوار الفكر عن إضاءة زوايا المجتمع، وعُطلت الإرادة تعطيلاً كاملاً... ومُنع "التمثيل" عن التأثير وذُبح العمل الحركي على يد الفوضى. ودفعت أحداث التاريخ المشؤومة المجموعات البشرية من مأزق إلى مأزق، ومن تشتت إلى تشتت. وجرّت النفوس الأنانية

والنفعية الكتل الإنسانية يمنة ويسرة. واستُغِلّت على الدوام للانتفاع منها. فلا مفـــر ولا مـــنجى إزاء هذه السلبيات في إنساننا المعاصر من القول: "رويداً.. ومهـــلاً قليلاً"، إلى حين النضج الكافي لتحريك قواه القلبية والعقلية. لا مناص مـــن أن نقـــول: "رويـــداً.. ومهلاً قليلاً" إلى حين إزالة الضعف في سجايانا الفـــردية، وإشـــباع إرادتنا بالقوة، وتربية معتقداتنا حسب مقاييسها اللازمة، وانـــتزاع الـــيأس بأنواعه من نفوسنا. وقبل كل شيء، من أجل الانسلاخ من "الانشداه بالغرب".

نعـــم، قد أوقعتنا هذه الحادثات المتتاليات في الغرب، من النهضة الصناعية إلى الـــتقدم التكـــنولوجي المعاصر، في شَدَه بعد شَدَه، فأصابتنا بالشلل، كما دوّخـــت رؤوسنا وكدرت أبصارنا المُتَلَقّيات الخاطئة لدعوى "العلمية" والخفة الفارغة "للعصرنة". وربما يدوم هذا الضعف والاهتزاز مدة أخرى. وربما يستمر المشـــي في السبات والتكلم في النوم، فيلزم أن نصبر ونحتمل سنين، علمها عند الله. نعم، سنصبر، لأننا نعي ونستشعر الحاجة إلى سنين قد تطول من الانتظار الحـــي في الأعماق المرجانية، ومن الحركة المؤثرة والمنظمة في حضانة البيوض، حـــتى يتعافى سائر البدن المتضعضع، ويستجمع قوته ليقتدر على تصفية حسابه مع العصر.

وإني أؤمـــن إيمانا صادقاً بأن هذا الانتظار والعمل الحركي سيحيينا ويحقق بأيديـــنا تغـــيير وجـــه العالم في يوم آتٍ. لكن لا شك في الحاجة إلى الزمان والظـــروف والإمكانات ليسري دم هذه الوتيرة في عروق الحياة، فتنبغ إرادات عظـــيمة وقوية تتّسِم بعمق الشيخ عبد القادر الكيلاني ورحاب الإمام الغزالي

وربانـــية مجـــدد الألف الثاني الإمام أحمد الفاروقي السرهندي وعشق وحماس مولانـــا جلال الدين الرومي وجامعية ورسوخ بديع الزمان سعيد النورسي... لتهيء بيئة حياتية ندية وطرية ببث روح جديدة في إنسان يومنا، فتصد أمواج حُمّـــى الأزمات التي تحطم منذ عصور إحساس إنساننا وفكره وفراسته، فتنفخ في روحـــه أنســـام "الجودي". كذلك، لأجل أن نفتح بلاد أنفسنا بأنفسنا، ونُشكّل حركيات أرواحنا من جديد، ونعمّر عالمنا القلبي والحسي والفكري. وعلى الضد من ذلك، لن نستطيع أن نقطع شوطاً في الطريق، مثلما لم نستطع حتى الآن، ما لم نجهّز فرساناً من نور يأخذون بأيدينا إلى منابع "الخِضْر"، وما دمـــنا مـــنعزلين عن ذاتنا وقيمنا الذاتية، وطالما عشنا تائهين خارج منظوماتنا الروحـــية. وما من سبب يدعونا إلى البحث عن عدونا في الخارج. لأن عدونا في داخلـــنا... جالسٌ في قصره، واضع إحدى ساقيه فوق الأخرى، يتطلع من الشباك على ضياعنا، ويضحك ضحكاً مكتوماً.

فـــإن كـــان لازما بالضرورة بناء استراتيجية الجهاد، فينبغي أن يبنى على انتزاع وطرح أعداء متربعين فوق عروش نصبوها في قلوبنا، لا أمان ولا إيمان عـــندهم. والواقع أن هؤلاء، ولا غيرهم، هم الذين يحاصرون عالمنا منذ قرون. ومرت سنون طويلة ولم ينج شعبنا من هذا الحصار القاتل، ولم يفلح في العودة إلى الـــذات، ولم يقـــم على ذاته. فصار مثالاً للتشرذم ولم ينجح في لمّ شتاته، وكأنـــه غـــرض مستهدف لرماية مجتمعات وأعراف وعادات شتى، أو كأنه مـــنكوب في عقلـــه يمر به أقوام وقبائل كثيرة ومفاهيم متنوعة، ويعبد أصناماً كثيرة في آن واحد ويجثو أمام آلهة موهومة كثيرة في وقت واحد، ويجدد العهد

والـــولاء لمعبودات مزيفة عديدة في يوم واحد! هذا ما وقع... لأنه لم يصدق تمامـــاً بصحة وسلامة أي فكر من الأفكار في تلك الفترة المشؤومة. ولذلك، عاش مرتبطاً بمحاور فكرية متعددة في وقت واحد، لكنه لم يعايش تياراً واحداً منها معايشة كاملة.

ومـــن يعلم كم فكر عظيمٍ بقي حبيساً في برزخ، فلم يشهد الحياة، في هذا العالم المثقل بالدخان والضباب، وكم منهجٍ جادٍ تحطم مصطدماً بالأفكار الكدرة للمصـــابين بقصر النظر! فهؤلاء لا يولون أهمية ولا يعون معنى للعلم ولا للمعاني التي تربط بين الأشياء والحوادث، ولا للمناسبات بين الإنسان والكائنات.

فالمسألة عندهم أن نفهم ما نفهمه، ونترك ما لا نفهمه باعتبار أننا سوف ندرك فهمه لاحقاً! وأن نقطع ونفصل ونشكل كل شيء حسب ثوابتهم، وأننا نستطيع بمهـــارة أن نسيّر حتى العلم والأبحاث تحت وصاية معتقداتهم ومبادئهم المحرمة على الـــنقاش، بإظهـــار حقائق أسطع من الشمس كأوهام، والأوهام كحقائق متى ما دعـــت الحاجـــة! وبالتشـــدق والتفيهق بأسلوب قاطع، والحسم والجزم بناء على فرضيات! وكأنهم شهود على الوجود وأطوار الوجود منذ البداية!

ولئن كانت الكائنات خالية من كل حقيقة تستحق الإيمان بها، ولئن كانت كـــل فكرة غير جديرة بالإيمان والقبول، فالوجود إذن عين الفوضى! وكيف نستطيع أن نحمي المجتمع من النسبية حتى في المسائل الفرضية غير المحتملة، إذا ما تحكّـــم في العـــالم فهم كهذا؟ أولن يحسب جموع البشر الذين استسلموا لتيار النسبية أصدق الحقائق صحيحة بقدر صحة مضاداتها؟ وأكذب الأباطيل بقدر كـــذب مضـــاداتها؟ وبدهي أن يخضع كل شيء للتلقّي النسبي الهائم، في حال

شـيوع مـثل هـذا الـتفكير، سـواءٌ في فهـم الخير والشر، أو الأخلاقي واللاأخلاقي... إن الشخصية التي يحتاج إليها شعبنا أمسّ الحاجة، هي شخصية الإنسـان المخلـص المـتحمس والمـتوازن، الذي يحركه الشعور والإدراك والمسؤولية، ويهيمن على تصرفاته وأعماله التفكير في الأيام القادمة في خططه وبـرامجه بقدر التفكير في ضرورات الحاضر. شخصية مهندس الفكر والروح، المنفـتح على الوجود بقلبه، العامر عقله بشعور العلم، المقتدر على تجديد ذاته كرة أخرى في كل آن، المتتبع للنظام في كل وقت، والمصلح لتخريب آخر في كل لحظة...

تلك الشخصية تهرول من نصر إلى نصر، ولكن ليس لتخريب البلاد وإقامة العروش فوق خرائبها، بل لتحريك المشاعر والمَلَكات الإنسانية، وتقويتنا بالحب والـرعاية والمـروءة التي تحتضن الناس كلهم والأشياء جميعاً، وإعمار الأرجاء المنهدمة، ونفخ الحياة في الأوصال الميتة، لتتحول إلى حياة ودم يسري في عروق الوجـود، وإشعارنا جميعاً بالأذواق الرحيبة لغاية الوجود. هذا الإنسان بطبعه ربـاني في كل أحواله وبكل ذاته... وهو في مناسبة دائمة مع الوجود باعتباره خليفة الله. وحركاته وأفعاله كلها مراقَبة... فلا يقوم بعمل إلاّ بحس من يعرضه على التفتيش... حتى يكون الله سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به... ويكون أسلوبه مترشحا من تأثير بيانه... ويكون تحت إرادته تعالى "كالميت في يـد الغسال". وإن إحساسه بعجزه وفقره أمامه تعالى هو أعظم مصدر للقوة والغـنى... فلا يني ولا يفتر من الاستمداد بأحسن وجه من معين هذه الخزينة التي لا تنضب ولا تنفد.

كذلك، هو إنسان المحاسبة والمراقبة الرحيب. الخير والشر، والجمال والقبح في مـــرآة روحـــه منفصـــلان عـــن بعضهما ولكل شيء موقعه الملائم فيها، كاخـــتلاف اللـــيل والـــنهار، والضياء والظلام. إنه ساعٍ، بكل إرادته وقلبه وشـــعوره، إلى اصطياد أعظم المقاصد المترتبة من حركية الوجدان، واللطائف الـــتي توجـــد الوجدان. وهو في حال الإدراك بأنه "لا يحمل عطايا الملك إلا مطايـــاه"، يتنفس القرب متقدماً على الملائكة خطوات بمعرفته، وبالمناسبة بين الإرادة والمسؤولية، وبالعلاقة ما بين القلب والعشق، وبتماسه واطلاعه الشاعر الواعـــي على أسرار الوجود وأسرار ما وراء ستار الوجود، وبالحقيقة المطلقة "بلا كم ولا كيف" في حسه.

هـــو قاصد في حياته الشخصية أن يبلغ آفاق الإنسان المثالي يسابق ويباري الأولياء والأصفياء في تمثله بالأوامر والنواهي الإلهية، ويَشقُّ فيه الشعرة أربعين شـــقاً تدقـــيقاً وتمحيصاً. هو فوق كل خيال في شجاعته في أن يحيا الإسلام الحقيقي، وفي تصرفه ضد كل ما يبغضه الحق تعالى، وصموده ومقاومته إزاء ما يصيبه في سبيل إحياء ما يؤمن به. ويعجز التعبير عن سماحة معاملاته مع الناس، وعمقـــه في معـــرفة الله، وتواضعه الجم، وإحساسه بعظمة الله، وبالوجود من حيث علاقته به تعالى، وبالعشق والشوق والتعلق والاهتمام.

إنـــه قـــبل كل شيء، وبعد كل شيء، هو إنسان المعرفة اللدُنية والواجب اللدُني. وينبغي أن نقف وقفة خاصة عند مفهوم "إنسان الواجب اللدُني".

مهندسو الروح الربانيون...

قد يمط بعضهم شفتيه استخفافاً إذا ما ذكرت القيم الأخلاقية والأعماق الداخلية للإنسان وأهمية الحياة القلبية والروحية. لكن لا شبهة أن السبيل الموصل إلى الإنسانية الحقيقية هو هذه القيم. فمهما كانت ظنون نفر منا، فليس اليوم أمام إنساننا المعاصر، الذي انطوى ظهره وحمل على حَدَباته أثقالاً مختلفة من الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، إلاّ سبيل واحد ينقذه من الضيق والشدائد المتوالية؛ وهو عودة الحياة إلى تلك الحركيات المذكورة آنفاً. وإن تحقق هذه الرسالة الحيوية لن يكون إلاّ على أيدي ربانيين لا يولون أهمية لأشخاصهم، ولئن اهتموا بأشخاصهم، فلا يرون خلاصهم إلاّ في خلاص الآخرين.

وعندنا -كما هو في حقيقة الإسلام- الخلاص من المسؤولية أمام الله تعالى مرتبط بالجهد والهمة في البحث عن طرق هذا الخلاص. نحن نرى سلامة مستقبلنا البعيد والقريب في أن نكون ملجأً للأرواح الأخرى، وفي ضخ النور في الإرادات الأخرى، وفي إعلاء القلوب الأخرى إلى الذرى... ونرغب دائماً إلى إشغال مكان بين الذين يتلقون الحرائق بصدروهم ويولّون للمنافع الذاتية أدبارهم. وبدهي أن الطبع الأخلاقي في سلوكياتنا وتحركاتنا، موصول بهذا النمط من الشعور بالمسؤولية المغروسة عروقُها عقيدةً في أرواحنا.

نعم، إن هذا النمط من الشعور بالمسؤولية وعزيمة الهمة العالية وإرادة القيادة

الإرشـــادية، التي تتعدى حدود فرديتنا دائماً، والتي تشكل أشد النويات حيوية في الـــنظام المحتضـــن للعالم كلاً وجمعاً، فتصير أهم مصدر للأمان الكوني، هي الأســـاس الفـــريد لخلاصنا، كما هي صوت مؤثر ولسان بليغ يهمس بالروح والمعنى اللذين تحتاج إليهما الإنسانية جمعاء.

ولـــن يـــدرك الخلاص البتة، أولئك الذين يديرون ظهورهم للوجود كله وللـــنظام العـــام، فيهدرون أعمارهم في ظلمات متاهات الأنانية. ودع عنك إدراكهم الخلاص... فكم تسبب هؤلاء حتى في هلاك الذين أحسنوا الظن بهم. بل المشاهد أن المراحل التي تقدمت الإنسانية فيها هي مراحل تصالحها وتعارفها مـــع الوجود. وينبغي في الحاضر أيضاً أن يترك الذين يبرمجون لمسيرة المستقبل الأنانـــية جانـــباً، ويضعوا أيديهم في أيادي كل إنسان وكل شيء بالضرورة واللـــزوم. وســـتجد الإرادات والأفكـــار تقويمها الحقيقي بقدر نوالها لمساندة الهيـــئات المتكاملة والعزائم المتوحدة والمشاعر المتضامنة في أتم المعاني. فالطريق الوحيد للتحول من الفردية إلى الجماعة، ومن قطرة إلى بحر، وبلوغ الخلود بهذه الوســـيلة، هو الفناء بالذوبان في الآخرين، والاندماج بهم بالانصهار فيهم، من أجل إحيائهم والحياة معهم.

ومن مقترب آخر، أن يكون الإنسان "إنسانا" وفق المعنى الذي يجعله إنسانا حقـــا، مرتـــبط بخضـــوعه لأوامر قلبه واستماعه إلى روحه، رغماً عن بدنه وجسمانيته وعقل معاشه الدنيوي. فعلى الإنسان أن ينظر إلى كل شيء وكل أحـــد بعـــين القلب، ويقيّمهم بموازين القلب المتأهلة للاعتبار والتقدير، لكي يـــتعرف جـــيداً على نفسه وما حوله. ولا ينبغي أن ننسى أن الذي لا يحفظ

طـــراوة قلبه وصفوة روحه في كل أوان، ولا يقي نقاءه وطهره كنقاء وطهر الأطفـــال برفقة ثرائه الذهني والفكري والحسي في كل وقت، لن يوحي بالثقة إلى مـــن حوله ولن يحوز على التصديق والإقناع قطعاً، مهما توسع في رحاب العـــلم والأدب والخـــبرة. ولذلـــك لا يطمئن ولا يثق جموع الناس بنفر من السياســـيين وآخـــرين يسوقون القوة والجبروت أمام المنطق والمحاكمة العقلية والقلب ما عدا الذين يظهرون التصديق خوفاً واستسلاماً. إن الأرواح الطاهرة والقلوب الصافية قد اتبعت دائماً الفكر النـــزيه والسلوك السوي النابعين من القلب. نعم، القلب الطاهر المحافظ على صفوته الفطرية قد احتسب -كما في إيمـــاءة لقول مبارك- بيتاً للحق تعالى معلوماً بالمكنون والمكنوز. في هذا البيت يمكـــن الإحساس والشعور بحقيقة اللاهوت بلا كمٍ ولا كيفٍ بدرجة طهارة أبعادها الأخروية وسماويتها، وبالطبع إن من قال "رأيت" أرادوا القول بالرؤية بهذا المعنى... فهذه الأرواح الصافية المطلقة عن الزمان، بلغت الفردوس -الذي يحتمل، أو حقيق، أن يدخلها الجميع في الأخرى- بَلَغَته وهي لما تزل في الدنيا، في نـــواة "طوبى الجنة" داخل قلوبها، واطلعت على الكائنات في الذرة، بل تُعَدّ واصلة إلى نقطة أبعد من ذلك، إلى أفق الرؤية.

وإن القرآن وصاحب القرآن حين يبين لنـــا رجل القلب، فهو أهل الحقيقة وإنسان القلب الذي يرى ويفكر ويتصرف بكليات قلبه كافة، وقيامه وقعوده رحمة، وقولـــه وكلامه وئام، وأحواله كلها رقة ولطافة. إن غاية خيال رباني كهذا: مواضيع رحيبة ومهمة مثل الانتقال بالأرواح كلها إلى التواجد الأبدي، وتقديم إكسير الخلود إلى الجميع، والمثول في أعماق ذاته، وفي العالم الآفاقي،

وبالطبع في دنيا قلبه، وفي حضور ربه، متجرداً تجرداً مطلقاً عن نفسه ومنافع ذاته وهموم مستقبله. إنه حامل قلبٍ نبوي مهتم بهموم الغير، يترفع على بؤسه البدني والجسماني، فيخطط لسعادة البشر حوله، ويرسم البرامج نقوشاً من أجل أمان وحبور المجتمع الذي ينتسب إليه، ويعتريه خفقان بعد خفقان لعذاب الإنسانية وبؤسها، وأمته خاصة.

ولذلـــك هو بطل عزيمة نبوية يخاصم الشرور التي تخنق العالم كله، وإنساننا خاصـــة، يقوم ويقعد مع آلام البرامج التي ينبغي إنجازها لدفع تلك الشرور، بدلاً عـــن الركون إلى ذهاب مغلق مفاده أن "تصوير الأباطيل تصويراً جيداً إضلالٌ للأذهان الصافية"، ولا يملّ من ابتلاع حلول العثرات غصة بعد غصة، ولا يكل مـــن مداهمـــة المعضلات طافحاً في حب جاد للواجب وحرص على المسؤولية وشـــعور بالإحســـان. بطـــل عزيمة يحلق بجناحي عجزه وفقره، ويتوتر بالشوق والشكر، ويئن أنينا تحت مسؤولية إحياء الانسجام العام والحقيقة. وإنها لمسؤولية عظيمة لا تترك أيّ مسألة تدخل في إطار إدراك الفرد وإرادته الشاعرة. مسؤولية إزاء الوجـــود والحوادث... مسؤولية إزاء الطبيعة والمجتمع... الماضي والمستقبل، الأحـــياء والأمـــوات، الشـــيب والشباب، القارئ والأمي، الإدارة والأمن... مسؤولية إزاء كل إنسان وكل شيء... وبالطبع الإحساس باضطراب وآلام هذه المسؤوليات في القلب، وإشعارها عن نفسها في الروح خفقانا مجنونا بعد خفقانٍ؛ هـــو جزء من جدول أعماله اليومية، يتبارى ليحوز على الموقع الأول في السبق. وأظـــن أن هذا هو العزم النبوي الذي يرفع الإنسان درجات فوق درجات عند الله، ويُكسب القرب من الرب، وبهذا العزم يُتوصل إلى المعراج في الروح.

وإن الاضطراب والألم الصادر من الشعور بالمسؤولية، مع استمرارها ودوامها خاصة، لهو دعاءٌ غير مردود، ومنبع وافر للبرامج البديلة، ونغم أشد تأثيراً في الوجدان المخلص المحافظ على طهارته. إن كل إنسان روحاني مرشح - بقدر سعة اضطرابه- لتجاوز طاقته الذاتية، بل لتجاوز طاقة جماعته التي ينتسب إليها... وقد يتحول إلى مركز محوري لطاقة وقوة الأجيال الماضية والآتية. وأنبّه هنا مرة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الذين يَحْيَون والذين يُحيون (غيرهم). وقد كررنا مراراً وتكراراً: أن الذين يقضون أعمارهم في إخلاص ووفاء واهتمام بالآخرين إلى درجة إهمال أنفسهم من أجل إحياء الغير، هم الوارثون الحقيقيون للحقائق التاريخية، الذين نودع أرواحنا وديعة مأمونة عندهم. أولئك الذين لا يطلبون أن تتبعهم الجماهير... لا يطلبونه، ولكن وجودهم نداء جهوري، وأي نداء! فأينما كانوا، يهرع الجميع إلى أولئك الربانيين وكأنهم مركز جذب... وقد يستقبلون الموت بسعادة وراء ريادتهم.

وسيكون المستقبل أثراً رائعاً للربانيين الممثلين لهذه الرسالة المهمة برؤى المسؤولية، وكذلك بمشاهد النجاح فيه. إن وجود شعبنا (والشعوب المتصلة به) وبقاءه، وبمجموع الواردات لحضارة جديدة وندية، والحركية الرحيبة الباعثة للحياة لثقافة ثرية، ستتنفس بأنفاس أولئك الربانيين، وتعلو رايات على أكتافهم، وتُنقل على كواهلهم المتينة إلى الزمان الآتي... وأقول "تُنقل" لأنهم أمناء مُستودعون للحقائق العالية ووارثون لتراثنا التاريخي.

ومعنى وراثة التاريخ هو وراثة كل ركام الماضي، المعروف والمجهول والصغير والكبير، وإنماء هذا الركام واستحداث مركبات جديدة منه، ثم نقل

ذلـــك كله إلى الأجيال القادمة، أصحابه الحقيقيين. فإن لم يوفِ هذا الوارث رسالة التاريخ المتعلقة باليوم والغد حقها من الاهتما، فسوف يحسب مسؤولاً عن خراب اليوم وضياع الغد. وهي مسؤولية تجعله -بقياس معين- في موضع خيانة القضية والتاريخ وهدم الجسور بيننا وبين المستقبل، إذا ما وقع الوارث في غفلـــة وتقـــاعس، أو توقف للبحث عمن يحيل إليه الأداء، بل وحتى إن بهرته محاسن الآخرة الجذابة فذهل رغباً إليها. فمن الضرورات اللازمة حقاً أن نوقن بـــأن المستقبل لنا من حيث وجودنا وبقاؤنا، وننظر إليه بهذه العين. فمن المهم لتنشـــيط حركتنا أن نجعل ذلك في رأس أولويات مشاعرنا وأفكارنا وبرامجنا. وخـــلاف هذا تحقيرٌ وخيانة للأمة. لقد آن الأوان، بل يكاد أن يفوت، لكي نحمـــل أعـــباء مؤسســـاتنا في كـــل مجال مثل الدين والعلم والفن والأخلاق والاقتصاد والعائلة، ونسمو بها إلى مواقعها الحقيقية في تاريخنا. فنحن أمة ننتظر ونترقب رجال عزم وإرادة وجهد يحملون هذه المسؤولية.

فـــنحن لســـنا بحاجة إلى حسنات ونظم فكرية تستجدى من الخارج أو الداخل، بل حاجتنا الماسة هي إلى أطباء الروح والفكر الذين يحفزون في شعبنا كله حس المسؤولية وشعور القلق والاضطراب... حكماء الروح والفكر الذين يُمَكّـــنون الـــتعمق في أرواحـــنا بدلاً عن وعود السعادة المتقلبة إلى الزوال، ويرفعوننا بجملة واحدة إلى مراتب نرى بها المبدأ والمنتهى معاً وسوية.

نعم، ننتظر رجالاً يعشقون المسؤولية والقضية إلى درجة يتخلون فيها حتى عـــن دخول الجنة، وحتى الخروج منها لأجلها إن دخلوها... رجال يقولون: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما

تركــته أو أهلِك دونه..."[1] هذا أفق نبوي. وإن عقلاً يجيش بأنوار تسيل من هــذا الأفق، يقول متى استوجب: "ليس في قلبي رغب في الجنة ولا رهب من جهنم... وإن رأيت إيمان أمتنا في خير و سلام فإنني أرضى أن أحرق في لهيب جهنم"[2] ثم يخر منطوياً على نفسه بخشوع... أو يمد ذراعيه داعياً: "إلهي، كبِّر بدني حتى تملأ به جهنم، فلا يبقى فيها مكان لغيري!" فترتعش السموات بعويله وبكائه.

إن إنســـاننا يحتاج اليوم أمس الحاجة إلى أهل العمق الباكين من أجل آثام شـــعبهم، المقدمين مغفرة وعفو البشرية على مغفرة أنفسهم... والواقفين على "الأعراف" متلذذين بحظوظ أهل الجنة، فإن دخلوها فلا يجدون وسعة في التلذذ بحظوظهم الذاتية.

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام، ٢٨٥/١

٢ سيرة ذاتية لبديع الزمان النورسي ص٤٥٧.

الشعور بالمسؤولية

الحركة والنهوض للحملة أهم عمق للصيرورة والتواجد. السكون اسم رديف للانحـــلال والموت. أما ارتباط الحركة بالمسؤولية فهو البُعد الإنساني الأول لها. ولا يمكن ادعاء الكمال في حركة أو نهوض لحملة من غير ضبطها بالمسؤولية.

أكثر الناس يسعون حثيثا إلى مقاصد وغايات مختلفة. ومن الهراء انتظار خير مـــن سعي ولهاث بغير ضبطهما بالمسؤوليات. فإذا عمل طلاب المنافع، الدائرة أعيـــنهم كالرحى طمعاً وحرصا، من غير توان وكلل، وخطب السياسيون في الأرجـــاء خطباً سحرية، وهَرّج الإعلام في برامج الأخبار والحوار والمنوعات الأخـــرى، وتنفســـت جهاتٌ هواءَ الابتذال أيام السنة كلها، وهرول رجال يكتســـون أرديـــة الدين نحو حق التمتع بلا فتور، واستيقظت سوق الأوراق والصـــرف عـــلى التوقعات وباتت مع التوقعات، وبذلت بعض دوائر الدولة الفـــرص لبعض الأيديولوجيات، وتطلع أهل الدراية من غير اهتمام في ذهول عـــلى كـــل ما يقع من عظائم الأمور، ومعنى ذلك أن من يسحق يغنم، ومن ينسحق يمضى في سبيله مبرراً الحال "بالانتخاب الطبيعي!" ومستسلماً وراضخاً لكل شيء باعتباره طبيعيا، فإن ما يلزم عمله يومئذٍ قد تعسّر وصعب، واشتد وثقـــل... حـــتى إذا نهـــض رجل فقال لأبطال(!) هذه الحركات والتكونات المشؤومة، أو للبؤساء المسحوقين بين أسنان هذه الدواليب المرعبة: قفوا... إلى أين أنتم ماضون؟

محضُ كِذب إن قيل قد يحيا مجتمعٌ والحسُ فيه منعدمُ

أروني أمة ماتت معنوياتُها، ثم هم بعدها سلِموا [1]

فـإن لم يصفعوه و لم يبصقوا في وجهه، فسيعزروه بكلام غليظ أو يتخذوه هـزواً. وربما قالوا: "كل شاة تناط برجليها" أو قالوا في عدم اهتمام: "الربان الماهـر هو الذي ينقذ سفينته"[2] مستهزئين من شعوره بالمسؤولية. بل ربما نفثوا هذيانـاً ينُمّ عن إنسان منفلتٍ غير مبال: "ما همني أن تعيش ألف سنة حيةٌ لا تلدغـني!". فيخفق وجدانه النبيه مضطرباً. ومن يدري بما يصدم فكره النقي ومشاعره البريئة في هذا القفر من شؤون وأشجان!

لـيس شيء من هذا مما يخطر على قلبٍ مؤمنٍ أو حساسٍ. ولكن لا يليق بشـعورنا بالمسؤولية أن نقول: سفسطة وهذيان... ثم نمضي في سبيلنا... لا يليق بمسؤوليتنا ولا يأتلف معها، لأننا محاصرون -شعباً- بالعداوات وبالأعداء. ومـا دمـنا في أسـر هذا الحصار، فلا يمكن أن نحقق ذاتنا في الحسْ والفكر والاعتقاد والفن والتصرف الحر، وأن نحمي كرامتنا الإسلامية وعفتنا "الملّيّة"، ونـنقذ سـفينتنا ونوصلها إلى بر الأمان، ونبني عالمنا الخاص ونحيا كما نريد، ونكـون ورثـة الأرض ونصل إلى الله. فينبغي أن نفتح عيوننا فنرى الحقيقة، ونعمـل ببصـيرتنا فنصون خواصنا المنتقلة إلينا من أمس إلى اليوم، ونطرد ما

---

١ ترجمة بيت لمحمد عاكف، ديوان "الصفحات"، ص ٢٧٢. (المترجم)

٢ المثل الأول يقال للنهي عن التدخل في شؤون الآخرين أو مسؤولية كل إنسان عن عمله بنفسه. والمثل الثاني لمن ينصرف إلى النجاة بذاته غير مبال بغيره. (المترجم)

يمضغ وجودنا وشخصيتنا من دواخلنا. وإن لم نفعل، فسوف نرى يوماً نعجز فيه عن الحفاظ حتى على حالنا الحاضر.

كـــان الجهل والفقر والتفرق والتعصب وما يشبه ذلك، هم أعداؤنا في زمن ماض. واليوم زيد عليهم الخداع والتسلط والسفاهة والخلاعة واللامبالاة وضياع الهويـــة. ولـــيعذرني هـــذه المرة الذين يحملون في جنباهم قلق النـــزاهة الدينية والصفوة الفكرية والحماسة "الملّيّة"، إذ أقول بأن أجيال الشباب وقسما من أنقياء الســـريرة من الشيب يضَلّلون منذ مدة طويلة بالحماس البريء النقي، ويعيشون غدر وعذاب الشخصية الصدوق-المنخدعة، ويُغرَّرون بأيديولوجيات منحرفة ما فيها إلا الكلمات المنمقة. ومهما انحصرت الظاهرة في شرائح معينة من الشعب، فإن هذا الانحراف الفكري والتحول والانـــزلاق في الشخصية يعني احتلال هذا الوطن المبارك تارة أخرى. احتلالٌ يسمّ محمد الفاتح، ويطعن مراد خداونديكار في أحشـــائه بخنجر، ويقتل يلدرم بايزيد همّاً، ويقهر ياووز سليم بكفّ الأسد.[1] احـــتلال فاضـــح يقـــتل روح "الملّـــة" التي خرجت ظافرة بالنصر من كفاح الاستقلال، لتذبح بسيئات العصر وغفلة المثقفين وإهمال الجمهور.

ونحن حملنا على عاتقنا مسؤولية بث روح جديدة في دنيانا، مشبعةٍ بالإيمان وحـــب الإنسان والحرية، وتجهيز البيئة لترسيخ الجذور المعنوية لشجرةٍ مباركة تنمو وتزدهر أفنانها بهذه المعطيات، وتزهو حقولاً جديدة بامتداد تلك الجذور.

---

١ إشارة إلى دس السم لمحمد الفاتح، وطعن الصربي الغادر للسلطان مراد بخنجر في ميدان المعركة بعد نيل الأمان، وموت السلطان بايزيد همّاً بعد وقوعه في أسر تيمورلنك وإذلاله، ووفاة ياووز سليم بورَمَ سرطاني متقيح في كتفه يسمى "شيربنجه"، والكلمة فارسية معناها "كف الأسد". (المترجم)

ولا شـــك أن إنجاز ما تمليه هذه المسؤولية مرتبط ارتبطاً وثيقاً بأبطال يصونون مصير الوطن ويحمون تاريخ إنساننا ودينه وأعرافه وتقاليده ومقدساته كلها... أبطالٍ طافحين بحب العلم، مُنْشَدِّين إلى الإعمار والإنشاء، متدينين أخلص من الخُلَّـــص، محبين للشعب، ومرابطين أبداً على أداء واجباتهم بشعور المسؤولية. فبهؤلاء وبجهودهم ستهيمن أفكارنا، ومحصلة هذه المفاهيم والأفكار، على حياة شـــعبنا... ويعلـــو في كل إنسان حس نذر النفس لخدمة المجتمع، وينتعش من جديـــد مفهـــوم تقاسم الواجبات والتعاون المتبادل، وتبرز كرّة أخرى خصلة ظهـــور الشيء الواحد بأوجهه الكثيرة في علاقة رب العمل بالعامل، وصاحب الأرض بالزارع، والموظف برجل الشارع، وصاحب البيت بالمستأجر، والفنان بمحـــب الفن، والموكل بالوكيل، والمعلم بالطالب، ويتحقق كل ما كنا ننتظر مـــنذ عصور. نحن نعيش في زمن نسبك فيه رؤانا في أفكار مثالية، ونؤمن أن مسؤولي العصر سيحققونها بتوقيت جيد حين تَأزف ساعتها.

هـــذا هـــو أُس رؤيانـــا وخيالنا منذ عصور. والشعور بالمسؤولية وأخلاق المسؤولية هو أول وسيلة لتحقيق رؤيانا وخيالنا. ولما كان السكون والجمود موتاً وانحـــلالاً، واللامســـؤولية في الحركة فوضى ولغطاً، فلا مفر من ضبط تصرفاتنا بالمسؤولية. فينبغي شد كل جهد لنا بالمسؤولية. طريقنا طريق الحق، وقضيتنا حمل الحـــق، وغايتنا تحري رضاء الله في كل رفّة عين. والأصل أن هذه صَدَقة كينونة الإنســـان وحكمة وجود الإرادة. نحن نحسب أنفسنا مضطرين إلى التحري عن غاية الحياة في حياتنا، والتوصل إلى العشق في أرواحنا، والوعي بشعور المسؤولية في وجداننا، وإرشاد المستيقظين على منبع نظام أساسه وأصوله الإيمان، ومصدر

قوتــه العشق، ونوره العلم والفن والأخلاق والحكمة... فنحتسب أنفسنا عبيداً لهــذه الرســالة عبودية لا انعتاق منها. وستكون بداية لنهضة عالمية ثانية، هذه الجهــود الــتي نــرجو انتشــارها وتطورها في استقامة وروحانية جميع الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين منذ البداية إلى اليوم.

لقد كان لكل عصر كرامة. فولدت الإنسانية من جديد بالإسلام في القرن السادس الميلادي، وعاد كثير من أقوام الترك إلى الحياة كرة أخرى بالإسلام في القــرن العاشر الميلادي، وانشقت بالاستحالة شرنقة عن فراشة في "سوكود"[1] في القرن الرابع عشر الميلادي. وأظن أن كرامة القرن الحادي والعشرين ستظهر بمــلء شعبنا والشعوب المرتبطة به مكانه اللائق في الموازنات الدولية. وسيدور هــذا التكون الجديد الذي يغير وجهة تاريخ العالم ومسيرته، في أفلاك الروح والأخــلاق والعشق والفضيلة. نعم، نؤمن أننا بهذا الجهاد المعنوي الذي يمكن تسميته بكفاح العلم والأخلاق والحق والعدل أيضاً، سنلم شعث أشلاء "أمتنا" المــباركة الممزعة البئيسة والمشردة في أرجاء الأرض المختلفة، لتجتمع الأجيال الــتي ظلت بلا راعٍ ولا غاية حتى اليوم في ظل الفكر، فتعيش "الانبعاث بعد الموت" من جديد في نشوة الوصل بــ "لواء الحمد".

---

١ إشارة إلى انبثاق براعم الدولة العثمانية في قصبة "سوكود"، وهي من أنحاء الأناضول التركية حالياً، والكلمة نفسها اسم لشجرة فالجملة تتزين بحُسن الجناس. (المترجم)

من الفوضى إلى النظام ـ ١

منذ عصور والناظر إلى مجتمعنا يرى أنقاضاً وأنكاثا من حيث الأخلاق والفضيلة والعلم والفكر. فما زال المجتمع يبحث عن نظام وفكر بديل في التربية والفن والأخلاق. والصحيح هو أننا بحاجة إلى إرادات فولاذية وأدمغة أصيلة تحتضن الوجود بأعماقه جميعاً، والإنسان برحابه الدنيوية والأخروية، وتفسرهما، بل وتتدخل في الأشياء بعنوان خلافة الله في الأرض.

نزعت حركات التغير والتحول الأخيرة في العالم، القناع عن كثير من الوجوه وأظهرها على حقيقتها. كذلك، أزاحت الغشاوة عن عيوننا إلى حد ما... فتوضحت حقيقة كنه الأشخاص والأشياء شيئاً فشيئاً. فاستطعنا أن نرى ما حصل بصورة أوضح، ونستنبط من الحوادث نتائج أسلم وأمتن... وصرنا نفهم أن ما تعرض إلى شؤم الإبعاد والترك والنسيان في هذا البلد منذ قرنين، ليس الزي والفكر وفلسفة الحياة حصراً، بل ثقافتنا "الملّيّة" وحِسّنا التاريخي ونظامنا الأخلاقي وفهمنا للفضيلة وتصورنا الفني وجذورنا المعنوية أيضاً قد تعرضت —وربما مع ضرر أعظم– إلى التآكل. فاهتزت أواصرنا الروحية وجفّت منابع فضيلتنا، وتعمقت الهوة بين حاضرنا وماضينا.

نعم، شهد عالمنا المبارك أطواراً عجيبة، فيها سكت المثقفون، وصُكّت أفواه الفكر، وظاهَرَ أصحابُ القوة والقدرة الضلالةَ والانفلات عن الأصول، وتعارفت الأجيال مع الأحاسيس الهامدة والآيسة والمظلمة في همهمات الحيرة وكأنها جنائز.

وكــم عينٍ تنفست دموعاً بلا حول ولا حيلة في زمن أحمر يحاصره اليأس أدخنةً سوداء من كل جهة، وصرخت مشاعر القلوب بأحاديث نَفْسٍ في وجه أنــاس لا يعــرفون ما الخجل، وقالت في أنينها: "ما الرجاء من حيارى فتحوا أشــرعتهم لــريح الإلحــاد، ومن بُلّهٍ يصفقون لكل واحد ولكل شيء، ومن منكوبي الوجدان المعتادين على طأطأة رؤوسهم أمام القوة، ومن شرف وعزة ملوثة؟ لكن ما اهتز تزعزع، وما الهدم خرب، وما ذهب انقطع، و لم يحل محله شيء جديد! نعم، قد أزيل ما تحطم و لم يقم مقامه شيء، فانقلب المجتمع رأساً عــلى عقــب باعتبار قيمه. ذلك بشهادة القلق وضياع الأمان المحسوس – في عصــرنا الحاضر خاصة– في أغوار قلوبنا جميعاً، حتى العقلانيين الواقعيين (!) الذين لا هم لهم إلا تحقيق مآربهم اليومية.

أرجوكم أن تتفكروا... بمَ ننجو من الفقر الأخلاقي والمعضلات المتشابكة يومــاً بعد يوم حتى جعلت الحياة حملاً ثقيلاً وحيرة لا تطاق؟ وكيف نتخلص من نوبات أمراضنا الفردية والعائلية والاجتماعية؟ وكيف نسير إلى المستقبل في ثقة واطمئنان؟

هــل نستورد أفكاراً حالمة وخيالية من هنا وهنالك؟ أم بعقلية العصر التي نحــاول أن نبني عليها كل شيء؟ كلا... كلا! لن يحمل هذا الحملَ الأثقل من جبل " قاف" منطقٌ كهذا المنطق وأفكارٌ مجهولة النسب كهذه!

مــنذ سنين مديدة لم تتجاوز حملات التجديد التغييرَ في الصورة. فقصرت عن إدراك مقاصــد الآمــال والخيال، وعن أدنى غاياتها المعلنة. وظن الذين قبضوا على الــزمام في القمم أن الإمساك بالفرشاة وتلطيخ جروح البدن الاجتماعي و"الملي"

بالأصباغ هو المعرفة والحنكة، بل ظنوه ثورة وانقلابا... وغاب عنهم كلياً النزف الباطن، ومضاعفات النزف الباطن، في الأعضاء الحيوية للمجتمع، وفي شرايين روحه. هذا ما حصل في تاريخنا القريب، باستثناء المظهر والتمثيل الخاص لأبطال كفاح الاستقلال المستمد قوته من الإيمان والأمل والعزم. هذا، مع إجهاضنا حتى للقوة والصفوة المكنونة في هذه الحملة المباركة باعتبار منطلقاها. فعسير أن تتحقق وحدة كالتي تحققت أو نهضة وحيوية كالتي حصلت.

فالحاصل أن مجاميع الناس التي انفصلت عن بعضها وتوسعت الهوة بينها في السنين الأخيرة، إن لم تقع في فقر مدقع في حياتها الفكرية وروحها وجوهرها، فقد وقعت في الاغتراب عن بعضها والاحتراب فيما بينها كالذئاب. فالبياض عند بعضهم سواد عند غيرهم، وما يدعو إليه بعضهم يخالفه غيرهم، والبديل المقترح من بعضهم داعية هزيمة عند غيرهم، وصلابة بعضهم تعصب عند غيرهم. ومع هذه السلبيات، تخيل مدى هذا الاحتراب، أو قل عراك العميان، ولا قسطاس يرتضيه الجميع لمعرفة أيهم أدنى إلى الحق وأقرب.

ولذلك، نحن اليوم في أمس الحاجة إلى طريق يوصلنا إلى الحقيقة والفضيلة، ومنهج تفكير لا يخدعنا، وموازين لا تضلنا. والواقع أن الوجدان والقيم الأخلاقية مصادر نور تكفي لحل كثير من المعضلات. لكن في أيامنا هذه، الوجدان جريح والقيم الأخلاقية شتات. فهذان المحركان قد أجتُزّا من الجذور وجُففت ينابيعهما.

لا ترتقي الأخلاق بالعرفان ولا الوجدان

حسنُ الفضيلةِ من خشية الله في الإنسان

فهب أن الخوف من الله في القلوب قد غاب وانحسر

فلن تجد إذن للعرفان والوجدان ذرة من أثر [1]

وزد على ذلك هشاشة الإرادة وضمور المحاكمة العقلية ووحشية الأحاسيس البشرية وتعطشها للدم كالتنين، لتعلم هول الكابوس الذي نعيشه.

فمن الضرورة إذن أن نبدأ العمل بإعادة النظر في عناصر محاكمتنا الأساسية، وتمييز الخط الفكري المنطقي، وإيفاء حق الإرادة، وإعداد جيل عزوم بل أجيال. فلنقر أولاً بمراعاة الأسباب، لأننا نعيش في عالم محاط بها. نحن نعيش في عالم الأسباب. فإهمالها محض "جبرية"، وضلالة بالحاصل. وليست مراعاة الأسباب وحدها، بل العناية بالمناسبة بين السبب والنتيجة (قاعدة تناسب العلية) من أهم لوازم التكليف.

فإن لم نعين أسس الأفكار المضرة والتيارات المفسدة، بمشاعر مسؤولية جادة لنقاومها منذ اليوم، فسوف نرى في المستقبل أبعاداً مختلفة للبؤس الأخلاقي والنكبة الاجتماعية والانحرافات الأخرى.

وليس الحنيك من ينتبه إلى النكبة والبؤس بعد ما تظهر النتائج عيانا، بل من يجزم بما سيقع وبأي سبب وسياق من قبل الوقوع. ومن العسير الادعاء بأننا أبدينا فراسة كهذه في تاريخنا القريب. أما أن نزعم بأننا أوفينا حق الإرادة فكلاّ! بل إنساننا في هذه المدة المدلهمة ظلمةً يشك حتى في إرادته الذاتية وفكره وعزمه... بل ما يفتأ يبحث عن إرادات سامية ومدهشة لتدير شؤونه.

---

١ ترجمة بيتين لمحمد عاكف، ديوان "الصفحات"، ص ٢٧١. (المترجم)

والأدهــى والأمَــرّ توهين الشخصية وأسر العزائم في أصحاب المشاعر النقية والوجدان الطاهر بإيحاءات من قبل المفكر فلان، والعالم علان والدولة الفلانية! ثم بمرور الزمان، صرنا نحكّم فلاناً وعلاناً في تفكيرنا وسلوكنا، فأصابونا بأنواع مــن دوار الــرأس وازورار المحاكمة وانحراف الملاحظة وانــزلاق الشخصية. فأصــيبت الأرواح المستسلمة تمام الاستسلام خاصة، بأعطاب رهيبة من المحال إصــلاحها. وكــان الأصــل أن لا نؤمن أو نرضى بإرادةٍ ما حققنا فيها ولا محصّناها، ما عدا الإرادة الإلهية.

يقــول ديكارت: "لا قيمة للفكر ما لم يتمتع بالحرية". أما كان ينبغي أن نفكــر عــلى الأقــل مــثل ديكــارت لتخلــيص أرواحنا من نظم التفكير السكولاستيكية البالية والمتعفنة في معظم جوانبها. ولكن هيهات!

يجــب على الأجيال المنورة آفاقها الدنيوية - الأخروية، التي ستعين معالم تكوّناتٍ يبدو أن لا فكاك من حدوثها في العالم في السنوات القادمة، أن تعيد النظر في الأفكار والمعادلات والأنظمة، الواردة إلينا من الخارج أو المُشكّلة في الداخل، وتطهير المجتمع من "لوثيات" التغريب،[١] وشدّه بجذور معانيه الذاتية... وذلك حتى يستطيع الحفاظ على جوهره وشخصيته، ويتقدم إلى مستقبله على خطه الذاتي أثناء التعايش الحميم مع العالم... وحتى يطلع على التفاف الماضي بالحاضر إذ يتقدم، فلا يشيح بوجهه عن الماضي لأنه قديم، ولا يقبل على كل ما يظنه طرياً من غير بصيرة لأنه جديد. إن أبرز خصال جيل الضياء هذا، أن

---

١ المقصود مما تلطخ بالمجتمع من آثار الاغتراب عن الذات، وليس "التغريب" هنا منسوباً إلى الغرب حصراً. (المترجم)

يحيط علماً بشؤون اليوم والغد، ويفهم أن ما ينبغي أن يعلمه ليس منحصراً بما نعرفه نحن، ويجهد في استيعاب الحقيقة بترشيحها من مصفاة العقل والمنطق والمحاكمة في دفء أنسام الإلهام، إلى جانب مكتشفات المختبر.

ومن المهم أن نعرف جيداً تأريخنا القريب، وأبطال التاريخ، لكي نحقق تطوراً وتغيراً كهذا. فنعرف الأسباب والشخصيات المؤثرة في تكوين تاريخنا الحاضر، ومَن أثار عشقَ وحماسَ التواجد والتكوّن مُجدَّداً في صدر هذه الملّة... ومَنْ لحّن نشيد الروح "المليّة"، ومِنْ أبناء الوطن أنشدها؟ فأظنّ أننا سندرك جيداً ما ينبغي أن نتخذه مبادئَ، ونستطيع أن نضع برامج واضحة للغد، بعدما أن نفهم ما ذكرناه فهما دقيقاً... ثم نسعد بالسير في درب الشجعان الذين يحتفظون في صدورهم بحيوية الفكر والقضية والعشق وأخلاق التسامح.

من الفوضى إلى النظام-٢

إن الانسجام بين الأشياء والحوادث جبري واضطراري، والنظام بين البشر إرادي، ومصـــدره الأعظـــم هو مخافة الله ومهابته. والنظام اسم جامع للأمان والاطمئـــنان والانسجام الاجتماعي ورجاء المستقبل الزاهر. فلا يُنتظر الأمان والانسجام من الفوضى، ولا المستقبل والعطاء من اختلاط الحابل بالنابل.

وقـــد يبدو لأول وهلة أن النظام أثر من آثار الإرادة البديهة والعقل المجرد. لكن عقلاً لم يَدْخُل في طاعة الروح، ولم يجتث جذورَ الالتفات إلى الشر، ولم يُعْلِ ميول الخير فيه إلى عنان السماء، كثيراً ما ينحرف إلى الفوضى.

النظام يسود دائماً ومنذ خلق العالم فيما عدا الإنسان من الكائنات. الانسجام في حـــركة الذرات، والرونق في وجوه الزهور، والتآلف والتوازن بين الموجودات الحـــية وغـــير الحـــية، وغمزات النجوم في صفحة السماء الفائضة في قلوبنا شعراً وعواطـــف، والمعـــاني المنسوجة خمائل على الأغصان والأوراق والأزهار، وأنفاس الروح في الحياة... نظام فتان يتحكم في كل مكان وكل شيء.

نعـــم، إن تأمّلَ الوجدانُ لحظةً واحدة في كتاب الوجود فأبْصَر، لشهد في كل مكانٍ النظامَ والانسجام فوّاحاً، وغنيٌ في الجمال والمعاني مدهشاً. ولا تمس الحاجـــة إلى تحسس شديد الرهافة، فالقلب المشحون بشيء من المشاعر يحس كـــل لون وصورة وصوت ونَفَس شعراً ونغماً متلوناً بألوان اللانهاية، في الرعد

المهيب كما في تغريد الطيور وزقزقة العصافير، وفي وجوه الأزهار الفاتنة كما في أضـــواء صـــفحة السماء الساحرة. ومن يدري ما يشهده الذين يتقدمون خطوة إلى الأمام في فيزياء الوجود وكيميائه وحياتياته وفضائياته.

فكـــل شـــيء يقـــول: النظام... الانسجام... وكل شيء ينادي بالمعاني الرحيبة في روح الوجود. كل الأشياء: من همهمات البحر إلى خوف ضربات القفار الموحشة على أوتار أحاسيسنا، ومن السكون الوقور للتلال إلى شواهق ذرى الجـــبال، ومـــن دوي البحار الدائم إلى نعومة خمائل اللانهاية المرفرفة في أعماق السماء.

فكـــيف طـــرأ اللانظام – الذي نسميه الفوضى– على الأرض، والنظام ينبجس في كل مكان وفي كل شيء؟ لقد عرفت الأرض الفوضى، ومن خلفها اللاأخلاقية، مع بني البشر الذين لم يسلموا طوع عقولهم لله، ولم يكبحوا جماح إرادهم نحو الشر، ولم يغنوا فيض مشاعرهم نحو الخير. الإنسان مخلوقٌ، أنواعُ رغـــباتهِ مفتوحة، وثغراتُه واسعة لا تقارن بما في حي آخر. فمن المعلوم أن في كل ثغرة من ثغراته، كالحرص والحقد والكره والغضب والعنف والشهوة، بُعدٌ موجي مختلف القوة من نـــزعات التخريب وميول العبث ودوامات الفوضى. ولا مفر من سقوطه في براثن نتائج غير مرضية ما لم يضبط ويُقيّد رغباته السيئة هـــذه بتربية حسنة، فيسمو بأحاسيسه الإنسانية، ويستجيب للعقد الاجتماعي الضـــمني المكنون في وجدانه بخواطر الرغبة والطلب، والفرح والحزن، والحق والحرية، مع احتساب وجود الآخرين.

ولا بد أن تكون التربية التي تسمو به من درجة إنسان "بالقوة"[1] إلى إنسان "بالفعل"، ذات أفقٍ لاهوتي ومحورٍ وهبي. فينبغي أن تغذى ثقافتنا الذاتية بورود حدائقـــنا وعصارات جذور معانينا وأرواحنا، لكيلا ترفض من قِبَل الوجدان الاجـــتماعي العام والشعور التاريخي... وينبغي أن يتحقق العقد الاجتماعي في أرفع درجة حسب ظروف العصر في إطار ملاحظات الحقوق والحريات، لكيلا تفقـــد قوتهـــا وشدتها، وتوقيرها وقيمتها، في شِباك التعارض والتساقط الذي تعيشه مختلف القطاعات الاجتماعية، أو في الدائرة الفاسدة للتحييد الناجم من التـــناقض. وليس المقصود من العقد هنا سنداً إجتماعيا مختوماً بتواقيع الرضاء المتقابل في أسفله. بل المقصود تعاقد الوجدان المتيقظ إزاء القيم الإنسانية على عقد مرتبط ومحدّد باحترام مفاهيم الحق والحرية وحب الحقيقة.

وإن البناء القلبي والرحابة الروحية للفرد، وتحول إيمانه ومعتقداته إلى جزء من طبيعته، يُعيّن حدود هذا العقد وإطاره. وبهذا الوجه يكون العقد الوجداني معـــادلاً لمستواه الإنساني. والمجتمع الذي أفراده قد تجاوزوا حدود جسمانيتهم وعاشوا حياتهم القلبية والروحية، هو مجتمع أنموذج للنظام. هذا النظام في عالم الإنســـان يتصف بالديمومة والأمل في المستقبل، لأنه بُعدٌ من الانسجام الكوني المحيط بالوجود كله.

الدولة في عالمنا كربّان سفينة مهيمن على القيادة في أهم المراكز الحيوية للكل المتكون من أجزاء توحي بهذه الأخلاق والفضائل. وواجب قبطان كهذا هو أن

---

١ المقصود من القوة هنا حال الإمكان والكمون، فإذا تحرك من الإمكان أو الكمون أو المكنون إلى الحدوث أو الظهور فقد تحول من القوة إلى الفعل. (المترجم)

يســـتفيد ويقيّم العناصر التي تحت تصرفه بأحسن وجه، وأن يوصلهم إلى الهدف من غير اصطدام بدواليب الحوادث، وذلك بالتأليف بينهم وبين نظام الكائنات. ولا يتصور مجتمع سليم ودولة راقية من أفراد حُرموا الفضيلة وجموع تحت إغواء اللاأخلاقـــية. وكذلك، الأمل في المستقبل من ركام الفوضويين المعتلين بأمراض عديـــدة من كل جانب ليس إلا انخداعاً. ومهما كانت الأسماء والأشكال، فإن الأمل في الحصول على شيء باسم الإدارة والأمن في خضم هذا الركام البشري المعزول عن السلاح أمام حظه الأسود، لا يزيد على أن يكون محض خيال. وأما انـــتظار الدولة والسلطة منه فهو سلوان كاذب لا يقوم على سند. فلا يمكن أن تـــتحقق الدولـــة والســـلطة إلا بالقصد إلى فكر سامٍ يمنحهما الحياة في المجتمع، ويغذيهما، وببرمجة كل شيء بموجبه والالتفاف كخيوط المغزل حوله. وتلخيصاً، احتساب "الواحد الأحد" في كل حملة، وفي كل جهد.

نعـــم، ينبغي أن يجهز ويبرمج كل فرد وكل وحدة حياتية حسب مقصود رفع الأمة إلى الذرى... حتى لا تفسد الحسابات والمنافع الضئيلة المنعقدة على الأشخاص وئامَ الانسجام العام، وحتى لا تتموج الجموع البشرية المتنوعة رغماً عـــن ذاتهـــا كأمواج البحر فترتطم ببعضها وتتبعثر. ولقد تحددت هذه الغاية المأمولـــة بصـــورة رائعة في زمن سابق بفضل هيمنة روح الإسلام على الحياة. فـــتَحققّ المســـيرُ إلى الذرى وكأنه فعل طبيعي في الحياة، وذلك بجعل الأفراد والوحدات المكونة للمجتمع أركاناً ومستنداتٍ للنظام.

إن إعادة النظر في تصوراتنا عن النظام، وتجديد الإيمان بأن إرادتنا هي التي ستحمل الانسجام الإلهي في الوجود إلى عالم الإنسانية، وسحب التوازن الدولي

إلى هـــذا الفَلَـــك، هو أجَلّ هدية تقدمها الأجيال المعاصرة إلى عوالم المستقبل الآتي. وأظـــن أن لدينا ما يكفينا لهذه الرسالة المهمة، إذا ما محّصنا إرادتنا كرّة أخـــرى، وفحصنا مقامنا عند الله، وعيَّنّا غاياتنا "المِلّيّة"، ورصّنّا استراتيجيات وسياسات مكينة، وشغَّلْنا حركيات موفورة في أيدينا.

القضية الكبرى لشعبنا

إبّان تزحزح العالم كله نحو الربيع في هذه الأيام، يتفق الجميع على أن المستقبل سيكون خيراً على رغمٍ من معوقاتٍ بسبب الوضع التاريخي. وجدير بنا أن نطلع على حال الذين يضغطون على هذا "التكوين" العالمي بعزم وإرادة وقدرة عالية. ولا شك في أن من واجب كل مثقف أن يفكر ملياً في مستقبل وطننا وشعبنا. لكن الشك فيما إن كان الجميع يحسون بمسؤوليتهم هذه أم لا. الثابت عندي هو أن نفراً قليلاً في هذا الوطن يقومون ويقعدون منذ سنوات مديدة حالمين بالمستقبل ومضطربين، على أملٍ بأن الطرق الوعرة ستوصل إلى الممهدة في يوم آت.

هذا الوطن، وهذه الأرض، التي رويت منذ زمان بدماء ملايين النفوس المضحية، تعيش اليوم مع كثير من أبنائها الأوفياء حماس العبور من الماضي إلى الآتي... طافحين بالرجاء والأمل وممسوسين بقشعريرة حمّى الارتقاء بشعبهم. فترى إحدى يديهم ورجليهم منشغلة بالعمل اليومي، وأخراها منشغلة في تجهيز الخطط والبرامج للمستقبل، بل تجدهم قد وهبوا أحاسيسهم ومشاعرهم لإمرة فكرهم ودعواهم. ولا بأس أن نقول بأن التاريخ التليد المجيد، والشعب المحظوظ الذكي، الذي حمي وحفظ قضيته الكبرى منذ ألف عام، فطوّرها وصوّرها حُسناً وشكلاً، يحس بالتهاب جذوتها في الأرواح كرة أخرى بوازع الحنين المزمن الحاد. فإن كثرة من الجيل الجديد يبدون وكأنهم رموز هذه القضية،

وممثلو هذه الرسالة، بفيض مشاعر الوحدة والتضامن، والعزم على الرقي بشعبهم فوق شعوب العصر. وكأنّ مآل المستقبل إلى أن يكون سرادقاً أبدياً لهؤلاء، ما لم تهب عاصفة مضادة لا تبقي ولا تذر.

هذه القضية بسطت أجنحتها الوارفة على يد أعاظم الإسلام الأوائل، فكان الأمويون والعباسيون، ثم اكتسبت قيمة ومرتبة مختلفة مع السلاجقة، وصارت أخيراً مع العثمانيين مسألة عظيمة وسامقة، ثم أصيبت بنكبة مريرة في مرحلة معلومة. لكن اليوم نشهد سياق عودة الحياة من جديد إلى القرية والمدينة، والعائلة والدولة، والشارع والمدرسة، والفن والعلم، والعمل والأخلاق، ونرى رفرفة حمائل القضية في كل صوب وناحية منذ الآن بوفاء كوفاء الفجر، وعلى مرغمة كل عائق، وبفضل الذين حفّزوا الخارطة الروحية للوطن بخفقات قلوبهم، ولوّنوها وسقوها بدموعهم. ولئن جاز العديد من خداع الفجر الكاذب، فإن شهادة أصدق الشهود على شروق الشمس قريباً هو الفجر الصادق في الأفق نفسه.

وعلى الضد من الحرص على المادة، وحب المقام والمنصب، والرغب إلى حياة، والضعف أمام الشهرة، والخشية من فوات الدنيا، وما يشبه من العوامل التي حلت محل قضيتنا الروحية والفكرية، وعلى النقيض من تقديس كل متروك ومنبوذ، نحس اليوم بداية زحزحتها عن مكانها وإشغاله بكل ما محوره الروح والمعنى. فنرى ظهوراً واضحاً لورثة قيم الماضي كلها من الممثلين السامقين للعلم والفن والأخلاق والفضيلة، أو المرشحين لمثل هذا التمثيل، فنجدهم حضوراً محل صخابي الأمس بدعاوى إنقاذ الوطن والصعود بالبلاد إلى مستوى

الغـــرب، ومرائي الانهماك في العمل بأفكارهم الغرة وتخيلاتهم الحالمة ولا شيء إلا الجعجعة.

ومـــا زالت المعارك دائرة في ميادين للسياسة، وساحات للمصالح، وممرات للمنافع... وما زال قوم يمنحون نصيباً للأطماع والرغبات ويوقعون الشعب في حـــيص بيص بادعاء إنقاذ الوطن وتثقيف الشعب والارتقاء بالوطن... والهذر بشعارات زائفة أخرى من أمثالها. لكن أرجوكم أن تدلوني على زمن لم يكن فيه من يشبه هؤلاء! فهم موجودون في كل زمان. وسنجدهم غداً كما نجدهم اليوم! فالتاريخ هو تاريخ الذين يتشاتمون ويفترسون وينصبون الفخاخ ويخونون ويفـــترون الكـــذب، كما هو تاريخ الصالحين والطيبين. وهل من حاجة إلى الإسهاب، إذ يكفينا أن نطلع على ماضينا القريب لنمتلئ رعبا؟ فكم من روح اغتيلـــت بشـــعار الديمقراطية! وكم من شرائح اجتماعية أوقع بينها فصارت بعضها ذئاب بعض! وكم من مرة سقيت قلوبنا بالحقد والبغض والكدر!

فلا نأمل أن تختلف أعمال شرائح من المجتمع بنوعها وطبيعتها اليوم أو غداً عـــن أمسها. ولن يخلو أنـــزه مجتمع وأمثله طريقةً من أرواح مظلمة، خادعة تفـــرق، ومســـتغلة تسحق، ومُبَدلة لأقنعتها المضللة تنجح في ستر أنفسها... وكما كانت في الماضي. لكن الواقع يبشر اليوم بوجود بَشَرٍ وافر وجهدٍ زاخر يفوح طيبا ملء الدنيا.

واليوم، هذا النفير التربوي بأسمائه وعناوينه المتنوعة، وهذا الجهد المنصرف إلى الحب والتسامح والحوار، هِمّة مهمة في سبيل لملمة شعث المجتمع وتحريك مصـــادر قوته المعنوية... همة تفي بإنقاذ سفينة الشعب الجانحة بالساحل، على

أيـــدي أجيال مؤمنة مشدودة الأوتار بالميتافيزيقي الغيبي. إن تلك العوائل التي فقدت فلذات أكبادها فوق مساحةٍ واسعة في زمن مضى، ممتدةٍ من اليمن إلى الـــبلقان، ومن صحارى العرب إلى سهوب آسيا، استدركت ما فقدت بفضل كفاح الاستقلال والاستقرار، فَشَبّت آمالُها بالقرار على بناء دُنيا جديدة. لكن أجـــيال الـــيوم التي تهرأت روحاً وشخصية وانتُقِص الشيء الكثير من مجموع قيمها الإنسانية أخلاقاً وفضيلة وفكراً وفنا بصورة متشابكة، ستشهد "الانبعاث بعد الموت" في ظل الاستقلال الروحي والاستقرار الفكري.

كـــان القرن التاسع عشر والعشرين عصر تفككنا وتراجعنا. ولم نتحسس زمناً طويلاً الأسباب الحقيقية لهذا التفكك والتراجع، أو قل إن شئت: حُرّفت الأفكار بهذا الشأن قصداً وعمداً... ولذلك شهدنا مظاهر هائلة من الرجعية في الديـــن والعـــلم والفـــن والإبداع، حتى أن بعض التيارات المتنافسة في الإطار الفكـــري، قـــد تحولت إلى تيار للإلحاد والإنكار تحت تأثير أحلامها الموهومة وحيرتهـــا وشـــدهها. بل ظهرت "موضة" التشدق بالعلم والسفسطة بدلاً عن الدهاء العلمي، والتمويه والتضليل بدلاً عن الثقافة، والتشويه والتلطيخ بدلاً عن الكفـــاح. وناضل قوم يحسبون الحيلة مهارة نضالا لا هوادة فيه من أجل هدم الحقائق التاريخية بالافتراء والتزوير والكذب.

ثم انظـــروا مـــا أروع جلوة القدر، إذ إن تلك المحركات التاريخية وجذور الشـــعب المعـــنوية لا زالت قائمة على قدميها ومتانتها، والذين سقطوا وولوا الأدبار هم أولئك!

فـــإن هـــذا الشعب الذي يستيقظ مرة أخرى على استقامة خط النبي ﷺ،

يترنم بأنشودة الصيرورة والتواجد الجديد مع أنسام الربيع الغض، كالزنابق إذا انبثقت من الأرض رقعة فرقعة، وإذا استولت على الأرجاء ناحية فناحية. نحن اليوم نرى أنفسنا -وإن كان إلى حدٍ معين- أمضى عزماً وأرصن قراراً، إذ نستمد من الرجاء والانشراح الحاصل بالعودة إلى الذات والعثور عليها. ورجائي أن يكون كل جهد وهمة، وكل قطرة دمع، بعد الآن كما كان من قبل، شفاءً لجروحنا التي بدت مستعصية على الدواء، وضياءً للمستقبل الذي بدا مظلما في عيون البعض منا.

وإذ ندخل إلى عتبات القرن الحادي والعشرين، فإن مستقبل بلادنا والبلاد المرتبطة بشؤوننا منوط بعُقبان جيش النور ذات أجنحة الضياء الذين يُعَدّون ممثلين سامقين للعلم والفضيلة والأخلاق في أيامنا، والذين نذر أكثرهم نفسه للتربية والتعليم. وستكون هذه الأجيال المباركة الرائدة -إن شاء الله تعالى- أصواتاً من النور وأفكاراً من الضياء تصفي حساب شعبنا مع العصر، زيادة على ريادتها في اكتساب قيمنا التاريخية مجدداً.

إن قضيتنا وغايتنا في الصيرورة والتواجد لا تماس لها ولا تلامس مع القوة العمياء مطلقاً. فنحن بملاحظتنا لحكمة وجود القوة المستسلمة للحق، لنا مفهوم لإحقاق الحق يتفق مع فكرنا الذاتي الرحب، ومتلقياتنا الفنية الأنفس من النفيس، وتدقيقنا الأدق الذي يشطر الشعرة أربعين شطرا. هذا إلى جانب احترامنا لضرورة التكنيك والتكنولوجيا، وألزمية الصناعة وعاجليتها، وعلو قيمة العلم فوق القيم، وإيماننا بالأهمية المطلقة لتغذية وطننا بكل ذلك، وبضرورة تحفيزه وإعانته في هذه المهمة الصعبة. ولذلك نحن اليوم في أمس

الحاجــة إلى مرشدين ذوي أدمغة متأهلة وأفكار رحيبة وآفاق واسعة، يقيمون هذه الموازنات لإنساننا، ويرتقون بشعبنا إلى ذرى الفكر، ويقودوننا إلى جذور معنوياتنا الذاتية، ويطلقون أرواحنا المشتاقة إلى المعالي نحو اللانهاية.

إن هــذا الوطــن بحاجة إلى أبطال شجعان من حواريي العلم والأخلاق والفضيلة المحصنين بالإيمان والأمل، الطافحين بالعشق والحماس، المنسلخين من الأغــراض المادية والمعنوية والدنيوية والأخروية، أكثر من حاجته إلى الأحزاب والتعصب الحزبي. وإلى حين التقائنا بهم واستسلامنا لهم، أظن أن غربتنا وأسرنا المــتمازجين سيســتمران، وإن كان بشكل نسبي. أدعو الرحمن الذي لا نهاية لرحمته أن يغيثنا بأولئك الخالدين الناهلين من منابع "الخِضْر"، الحاملين كؤوس الحــياة لــنا في أيديهم، والذين وجدنا السلوان بأماراتهم وعلاماتهم البادية في الآفاق، ونحن نترقبها منذ سنين.

الأجيال المثالية

في هذه الأيام المطلة على أيام الحبور، إذ يستنشق فجرها أنفاس العيد، نجد في الواقــع نوبــات مــرض ومعضلات تبدو مستعصية على الحل. وإن العلل الاجتماعية، والأمراض "الملّيّة" والآفات الطبيعية، وما يشبه هذه الأزمات التي تستشــري في جسد المجتمعات، لا تعالج بتدابير يومية قصيرة الباع. فإن معالجة أزمات واسعة الآثار كهذه، منوط بشيوع البصيرة والعلم والحكمة في المجتمع. وعلى نقيض ذلك: الاشتغال بمعالجتها بسياسات المناورة اليومية التي لا غاية لها ولا أفــق فيها، ليس إلا هدراً للزمن. ونعلم من أمسنا ويومنا أن رجال الروح والمعــنى والبصيرة قد حلّوا عُقَد أعصى المعضلات والأزمات بيسرٍ لا يستوعبه خيالنا، وذلك بسعة آفاقهم وعلو هممهم، وبتحريك قسم من مصادر قوة اليوم لحســاب المستقبل. وكثيراً ما حسبنا تدابيرهم الفذة فوق قدرة البشر وأصابنا الدهــش والشَــدَه منها. والواقع أن ما قاموا به هو ما يقوم به كل موفق من الرجال... ألا وهو استنفاد كل الطاقات والقدرات التي وهبها لهم الحق تعالى وبأحسن وجه مفيد.

نعــم، أولــئك ينشغلون بحساب الغد مع اليوم قياماً وقعوداً، ويستعملون الإمكانــات والحركــيات الحاضرة أحجاراً لإنشاء الجسور الموصلة إلى الغد، ويجدون في حناجرهم غصص نَقْل الأيام الحاضرة إلى الأيام القابلة... يبتلعون حســابات هذا النقل غصة بعد غصة، لأن حل عقدة المعضلة مرتبط بتجاوز

الـــزمن الحاضـــر، بل بالتحرر من قيود الزمان... إلى درجة النظر إلى الماضي والحاضـــر والقـــابل، والقدرة على تحليله وتقويمه، بالصفاء والنقاء نفسه. هذا الفكر الرحيب الذي يعني احتضان الغد منذ الآن، وفهم محتوى المستقبل روحاً ومعـــنى، سَمّه إن شئت "مثالية". لكن لا يُتصور أن يتغلب من لا تتسع آفاقه هـــذا الاتســـاع على معضلات ومشاكل كهذه، ولا أن يَعِدنا بشيء ذي بال باسم المستقبل. إن الفخامة والعظمة والحياة الصاخبة لفرعون ونمرود ونابليون وقيصـــر وأمثالهم، لم تقدم شيئاً باسم المستقبل -مهما كبرت أعمالهم في عيون قـــوم يحسنون الظن بلا تمحيص- بل محال ذلك، لأنهم وضعوا الحق تحت إمرة القـــوة، وشـــدوا الـــروابط الاجتماعية حول المنافع، وقضوا أعمارهم عبيداً للنفسانية عبودية لا ترتضي عتقا.

والحـــال أن الذيـــن جعلوا الأناضول وطناً، وابتداءً من الخلفاء الراشدين، خلفوا آثاراً تجتاز باعتبار نتائجها الدُّنَى لتصل إلى العقبى وتتحدى العصور، في نظر الذين لا ينخدعون بالخسوف والكسوف المؤقت. نعم، عاش هؤلاء عمراً زاخـــراً ثم رحلوا، ولكن لن يغادروا الصدور التي يحيون فيها بذكرى مآثرهم الجمـــيلة. وما زالت أرجاء بلادنا تعبق بروح ومعاني آلب أرسلان وملك شاه والغازي عثمان والفاتح، وتسيل الآمال والبشرى من غايات خيالهم وأملهم إلى أرواحنا.

لقـــد سحق القيصر "عقيدة روما" من أجل هواه ورغبته، وحبس نابليون آمـــال فرنســـا الكـــبرى في شِباك أطماعه، فقتلها، وافترس هتلر أحلام ألمانيا الكـــبرى بمغامـــراته، فقضى عليها بالموت. لكن فكر هذه "المِلّة" المتفتحَ على

الديمومـــة والتمادي، والمتّصفَةَ بُطولاتُه بالتكامل والاستمرارية، بقي مصاناً من كـــل إسفاف، ومعززاً كراية تفدى بالأرواح، سواء في الانتصار أو الانقهار. الفاتح اجتاح استانبول تحت تلك الراية ودَوّى صرخة في آفاق الغرب... وأنّ أنيناً. والقانوني رحل إلى "الأبعاد" مالئاً عينيه من خفقات ذلك اللواء الوارف عـــلى سفوح الغرب. وأبطال "جناق قلعة" كتبوا بدمائهم ملحمة مثل ملحمة "بـــدر" باسمـــه، ووفّى ابن الأناضول دَيْن الوفاء الأخير له، وهو محاصر بألف قحط وقحط، فَزَأَرَ كرة أخرى زئير قلب التاريخ المجيد: "أبدية المدة!.."[١]

يَبْلُغُ الفكرُ على يد رجل الفكر مقاماً فوق المقامات، ويصير سحراً للظفر بعـــد الظفر، وللنجاح بعد النجاح. فإن لم يكن ممثلو الفكر أهلاً لحمله، فيَبْعُد ذلك الفكر أن يكون راية، ويغدو رمزاً صغيراً يجمع حوله سفسافَ صيحاتِ المطـــامع الدنيئة. إن رموزاً صغيرة كهذه قد تجمع حولها أولاد الأزقة وتقودهم إلى أهداف وغايات من لُعَب. لكنها لن تروِي غليل المشاعر في أعماق شعبنا.

إن رجـــل الفكـــر بطل للحب قبل كل شيء. فهو يحب الله حباً كحب مجـــنون، فيحس في ظل أجنحة الحب هذا بوشائج وثيقة تربطه مع الكائنات. فيحضن بشفقة كل إنسان، وكل شيء... ويضم إلى صدره إنسان الوطن بحب

---

١ يومئ المؤلف بـــ"أبدية المدة" إلى معان ثرة مكنونة أو ظاهرة، ذات أبعاد عديدة. ولعلنا نفيد في إيضاح بُعد من الأبعاد إن نبهنا إلى أن دول الإسلام العظمى في التاريخ كالدولة العباسية نعتت بدوام العز والسعد إلى يوم القيامة. وكانت الدولة العثمانية تنعت بالدولة "العَليّة الأبدية المدة". فهنا إشارة إلى هذا البُعد، زيادة على إيماءات أخرى مثل أن الأمل في النهضة لم ينفَد، وأن الدين خالد، وأن طبع الفداء لن ينقطع، ولعل النهوض يبدأ من هذه البلاد. "وجناق قلعة" موضع شهد هذه المعركة الشهيرة في التاريخ، سطر فيها الجيش العثماني ملاحم فذة ورد جيش الحلفاء على أعقابه في الحرب العالمية الأولى، وذلك كان في ١٨ مارس ١٩١٥. (المترجم)

يـــبلغ حد العشق... ويداعب ويشم الأطفال كبراعم للمستقبل... وينفث في الشـــباب الاستحالة إلى إنسان مثالي، إذ يباريهم في بلوغ المقاصد السامية... ويُشـــرّف الشـــيب بـــأخلص التوقير والاحترام... ويفتح سبيلاً للحوار مع الجميع... ويقارب بين شرائح المجتمع المختلفة بمدّ جسورٍ مبتكرةٍ فوق المهاوي الســـحيقة الفاصـــلة بينها، ويضطرم حراً من أجل الملاءمة التامة بين الشرائح المتوافقة نسبياً.

ورجل الفكر الحقيقي، هو من أهل الحكمة أيضاً. فهو من وجهةٍ يستوعب كـــل شيء بدنيا عقله المحيطة سائحاً ومستطلعا، ومن وجهة أخرى: يزن كل شيء بموازين القلب المقدِّرة حق التقدير، ويمررها عبر مقاييس المحاسبة والمراقبة، ويعجنها في معجنة المحاكمة، ويصورها، ويقارن في كل وقت بين ضياء العقل ونور القلب كفرسي رهان في المضمار.

ورجل الفكر أنموذج للشعور بالمسؤولية إزاء مجتمعه. يضحي بكل ما وهبه الله، ومـــن غـــير تلكؤ وتذبذب، في سبيل أهدافه وأول أهدافه كسب رضاء الله... ولا يخـــاف ولا يخشـــى من شيء، ولا يهب قلبه إلا لله وحده... و لا يـــبالي برغب إلى السعادة، ولا بقلق من شقاء. لأنه بطل أسطوري للمعنى إلى درجة لا يأبه فيها بالاحتراق في نار جهنم، ما دام فكره ووطنه سامقاً وعاليا.

ورجـــل الفكـــر الراقي يستشعر التوقير للقيم التي وهب لها قلبه استشعاراً عميقاً كعمق المراقبة، ويمارسه بنشوة كنشوة العبادة، ويعيش دائماً رجل عشق وحماس لا يفتران. ويعلم كيف يضحي في سبيل فكره بالنفس والحبيب، والمال والجـــاه، والأهـــل والعيال، واليوم والغد، في آن كلمح البصر ومن غير توان،

ويـــرجح دائمـــاً وجهة فكره السامي مع مراعاة الحق والحقيقة بتدقيقٍ يشطر الشعرة أربعين شطراً. وهو حاكم على نفسه، ومحكوم بيد الحقيقة، وغير مبالٍ بالمقـــام والمنصـــب، وخائض في كفاح مستمر في أعماق قلبه بلطافة احتسابه الشـــهرة والطمع وحب النفس والرغب إلى الراحة، وأمثال هذه الأمور، سماً قاتلاً. ولذلك يفوز أبداً في ميادين الظفر، ويجعل مواقع الهزيمة ساحات تدريب فني للفوز والنجاح.

وهو في سلوكه طريق السامقين، مشدود شداً وثيقاً بحسابات الحق... حتى إذا صـــدمته عواصف الرغبات استقوى واشتد فيه حب الحق، وإذا توجه إليه طوفـــان الحقد والبغض، أطفح في روحه فوارات الحب والشفقة... وكم نعمةٍ يهفـــو إليها عامة البشر، يتجاوز هو عنها ماضياً في سبيله، وكم نقمةٍ يتصدى لهـــا بصدره. وإذ نتخيله بآفاقه الحقيقية التي تذهل العقول، يطوف أمام عيوننا أطـــياف العـــزائم النـــبوية، وتنهمر على أحاسيسنا صور بشر فوق البشر من وَلَجـــات الأبـــواب الـــتي تُفَرِّجها التداعياتُ، ويفعم بيت خيالنا بالبطولات التاريخية... يطفح ويفيض، فيرتعش بوفاء وإخلاص عقبة بن نافع في صحارى أفريقـــيا، ويذهـــل لشجاعة وحماس طارق بن زياد الذي يخلف وراءه "برج هـــرقل"[1] أثـــراً بعد عين، ويتطلع دهشاً إلى عزم وإقدام محمد الفاتح، ويُقَبِّل السيف الذي أبى الاستسلام في "بَلَونة"، ويسلم — تعظيماً — على أُسود "جناق قلعة" الذين استقبلوا انفلاق المدافع والقنابل فوق رؤوسهم بالضحك والسرور.

ولســـنا بحاجـــة اليوم إلى هذا وذاك، بل إلى أمثال هؤلاء من رجال الأفق

---

[1] المقصود جبل طارق. (المترجم)

الرحيب المثاليين بالشخصية السامقة. وسيتحقق في السنوات القابلة قيام شعبنا من جديد وكرة أخرى، على يد هؤلاء من أهل الروح والمعنى، ورجال الفكر السامق. هؤلاء الشجعان الذين خميرة وجودهم هو الإيمان والعشق والحكمة والبصيرة، لم ينحنوا أبداً أمام زخم الهجمات الداخلية والخارجية على مر القرون التسعة أو العشرة الأخيرة، ولم يتزعزعوا. ربما انكمشوا شيئاً قليلاً أو ضاقوا، لكنهم اكتسبوا صلابة البنية، فتماسك قوامهم إلى درجة كافية لتصفية الحساب مع المستقبل. وهم اليوم جاهزون لاستلام "النوبة" بقوة الروح الخارقة للعادة، يتطلعون إلى العصر بأبصارهم في ترقب نشط.

نعم، في القرون الأخيرة، شهد العشق والحكمة والبصيرة وحس المسؤولية ضموراً وانكماشا، وجاءت المسائل اليومية الطفيفة لتقعد في مكان فكر "الملّة". فلا يمكن الادعاء –بداهة– بحصول "تجديد" في هذه المرحلة. وما طرح في الساحة باسم "التجديد" في هذه المرحلة لا يتجاوز التقليد الوضيع والتكلم بلسان الغير. هذه الهيكلية الشكلية التي يمكن أن نصفها بتلبس الفكر "الملي" بلبوس الفسق وتخريب روح "الملّة"، قد أضرت أكثر مما نفعت. وبينما كان الشعب ينزف دماً بسبب التخريب والهدم الواقع في بدن المجتمع، لم يُعرف الداء الحقيقي، ولم تُكتشف طرق المداواة، وأصابت المعالجات الخاطئة جموع الناس بالشلل. ولا زالت آثار نوبات الحمّى لمرض القرون الأخيرة تشعرنا بدوام العلة، لاستمرار فورانه الدافع "عن المركز".

لذلك، سنقع في خطأ بعد خطأ ونحن نبحث عن دواء، وسنصاب بنوبات بُحرانٍ أشد، وسنعجز عن الانفلات من دائرة الأزمات الفاسدة، اليوم أيضاً

كمـــا في أمسنا، ما لم نتبصّر في الأسباب الحقيقية للمعضلات، ولم نعالج عللنا الفردية والعائلية والاجتماعية بحذاقة الحكيم، ولم نخرج من مستنقع "اللوثيات" الذي نضطرب فيه منذ عصور.

ولـــئن أصَرّ الذين يمسكون بالعنان على عنادهم الدائم عدة قرون، فنحن نؤمـــن يقينا بأن أجيال الفكر المثالية المتوجهين نحو المستقبل بحسهم وفكرهم وعملهم الحركي، المحبين لرسالتهم ووطنهم وإنسانهم بدرجة العشق، المتوترين كوتـــر القوس في انشدادهم إلى الخدمة والشعور بالمسؤولية، ستجتاز العقبات كـــلها وتنشـــئ تكوينات جديدة. فلا بد أن يسري العشق الذي في جنباتهم، وحبهم للخدمة إلى شرائح مجتمعهم كلها، فتشب براعم أينما سرى. وإذ يلغي هذا الفكر الواقعَ المادي والجسماني القائم، ويطرحه جانباً، لا بد أن ينقش كرة أخـــرى ديباج روحه الذاتي، حسب رؤيته الخاصة إلى العالم، وببرنامج حركته الذاتي.

" اَلْمُعَيَّنِية" إلى حدٍ ما

إن تماسك أجيال الغد وقوامها وسعادتها، حاصل من حواصل الأرواح والأنفاس المضحية هذا اليوم. وإن انتظار مستقبل متكامل ومنظم من ركام البشر الضجر الشريد السادر في الراحة والرخاوة، ليس إلا محض وهم وسلوان كاذب. المستقبل يستطور إلى براعم في رحم اليوم، ويربو برضاع اليوم، ليتماسك قوامه. وكما يحمل وجودنا اليوم سمات أمسنا، بخيرها وشرها، كذلك يكون الغد نسخة من اليوم بصورتها المطورة والموسعة والمتحولة من الفردية إلى الاجتماعية. وإن حياتنا "الملّيّة" بألوانها وأحوالها الخاصة، تشبه نهراً يسيل متسرباً من جبال الماضي ووديانه، وسهوله وأريافه، فينحدر إلى المستقبل بتلوناته الخاصة. وإذ ينحدر نحو قابل الأيام، يحمل معه خصوصيات الأرجاء التي يمر منها. وسنرى إن أمعنا النظر في الشلال الذي ننحدر نحن أيضاً معه، آثار أقدام أجدادنا، وخلجات أرواحهم، ونتاجات أدمغتهم وعضلاتهم، وأفكارهم، وخفقات قلوبهم. فلا جرم أنهم منابع حياتنا، وأننا بأنفسنا وبحركيات تاريخنا، عصارة وجود الأجيال القادمة.

فإذا فهمنا هذه النكتة اللطيفة في التوارث، نعلم أن روح الأمة تحافظ على جدتها وشبابها وتبقى إلى "أبد المدة"، مهما هرمت أحوال الدنيا، وتبدل الزمان كلاً، وتغيرت العصور، وراح من جاء، وأعقب الآتون بعدهم من راحوا. ففي خط التبدل والتحول هذا، إذا انقلب أبو بكر إلى عمر بن عبد العزيز، وتحول

عمـــر إلى الفـــاتح، وصار عليّ روحاً للغازي "بَطّال"، وتمثل أبطال بدر كرة أخـــرى بعمق محتواهم ومعناهم في "ملازكرد" و "قوصوة" و "جناق قلعة"،[1] فـــإن ذلـــك يعني انشداد كل شيء بالأبد. وعندي أن هذا هو سحر التجدد والحفاظ على الشباب. والواجب أن نجعل زوالنا غداً فرادى، أساساً وعصارة لوجودنا وبقائنا "ملةً"، فنستقبل في سعادة وفرحٍ أشد أنواع الموت رعباً، حتى نضـــمن الأبـــد بأبعاده الدنيوية والأخروية. إن الأبطال الذين يجهزون غدنا، والذين تقصر عنهم تصورات المدن الفاضلة، هم أولئك الذين يستفيدون على أتم وجـــه من كل فصول العمر، من يوم إدراك الألوان الوردية للدنيا إلى عوالم الشـــباب المتوثب المزدهر ألوانا، ومن مرحلة النضوج المتميز بالصلابة والقوة والإرادة، إلى زمن الشيخوخة المكين والمستقر، فتراهم يوازنون كل خطوة من خطواتهـــم، ويحيون عمراً مليء الأيام، ويستعدون للموت في كل منعطف من مـــنعطفات الحياة، ويموتون إذ يموتون ملتفتين بوجوههم قِبَلَ الأبعاد وغرقى في العشـــق. هم أولئك الأبطال المجهولون وصروح الروح المتحركة على قدمين، يســـبقون إلى الأمام أبداً، ويظهرون في الخلف دائماً، يعيشون حياة من يترك ذكرى لطيفة لأجيال، ولكنهم يَجِدّون في تحقيق لقاء الموت بملاحظة أن يقال: مات مسكين ههنا!

فـــإن عجزنا في زماننا هذا عن إعداد أبطال كهؤلاء، أو عن منحهم فرصة تمثـــيل الحركـــيات المذكـــورة آنفاً، أو عن حياكة فصول العمر المختلفة بمغزل

---

[1] الغازي في التركية بمعنى المجاهد و"بطال غازي" من المجاهدين في جيش الدولة العثمانية، أبلى بلاءً حسناً في الحروب وأصبح بطلا أسطوريا يضرب به المثل في الشجاعة والإقدام. وملازكرد، وقوصوه، وجناق قلعة وقائع مشهورة. (المترجم)

حركيات هذا الروح والمعنى، فلن نستطيع أن نَعِدَ بشيء باسم المستقبل، ولا أن نـــديم وجودنا في الأيام المقبلة. فإذا اقتنعنا بأن المرحلة التي نحن فيها أساسٌ للجزء الذهـــبي مـــن الـــزمن المقبل، فينبغي أن نستفيد أقصى استفادة من هذا الأساس بالبصـــيرة والشـــعور والإدراك والصبر، وتجهيزه للمستقبل بالحفاظ على الروح والجوهـــر، مع إشباع جوانبه المفتوحة للتفسير بخزائن تجعله قادراً على احتضان المســـتقبل. ولا محـــيص من تلك المحذورات المذكورة آنفاً إذا ما أهملنا المتطلبات اللازمة. فلا يصح في روح الدين وقواعد "الشريعة الفطرية"[١] إهمال الأسباب، ثم توقـــع حصول النتائج المتعلقة بالأسباب، أعني من جهة العلية بداهة. وما نشهده دائمـــاً في صدر الوجود من "مُعَيَّنِية"[٢] (Determination) بقدر معلوم وشروط متعلقة بظروفها، جارية في أحداث التاريخ أيضاً. إن البشر والحوادث السالفة في الماضي والتي صارت تاريخاً، هي اليوم شبيهة بالحيوانات المنوية المودعة في حضائن اللقـــاح، أو بالبـــيوض في بيوت التفقيس أو تحت عقدة الحياة... وتُعَدّ مصدراً لإضـــفاء الصـــورة على الحاضر. وإن الأسباب المنثورة اليوم –من جهة العلِّية– كالـــبذور على سفوح التاريخ، هي عوامل تُعَيِّن نتائج الغد المتسمة ببُعْد الحكمة وصبغة العدالة وسلوكية الاستقرار ومعادلة الاستقامة.

أوَلَمْ يتكرر هذا دائماً وحتى الآن؟ أليست الأيام السوداء التي شهدناها في

---

١ المقصود من الشريعة الفطرية مجموع السنن الإلهية التي فطر الكائنات عليها وأجراها فيها. فهي بهذا المعنى شريعة فطرية وقوانين إلهية واجبة الطاعة والمراعاة. (المترجم)

٢ المعينية: الخصلة التي تحقق ذاتية الشيء (عند هيجل)، وتختلف "وضعية" الشيء عن المعينية بأنها تحدد العلاقة بين الشيء مع الأشياء الأخرى. وفي المعينية تكون عائدية الخصال والصفات إلى الشيء بذاته وعلاقاتها فيما بينها ذاتيا وفي نفس الأمر. (المترجم).

مــرحلة معينة، وليدة "لوثيات" المرحلة التي سبقتها؟ ألم يفر تنور الطوفان في الأرض الـــتي يدوس عليها المخبولون المعاندون للنبي نوح عليه السلام؟ أليست الأعاصـــير الـــثائرة في "الأحقاف" تدميراً من أجل تطهير الأرض التي دنستها "عـــاد"؟ وهـــل أضـــحية "سدوم" و"عاموراء"[1] إلاّ فدية الأرض للسماء؟ ألم تنسحق "الهند" تحت الأحذية الانكليزية سنين في الماضي القريب بسبب اعتبار قســـم من أهل الهند لآخرين منهم "منبوذين"؟ ألم يكن التفسير الخاطئ للكون والـــتفرق والجهل سبباً لنهش الأقوام الآسيوية بعضها لبعض في العهود القديمة عـــلى يـــد جنكيز خان وهولاكو وأمثالهما؟ واكتوائهم في البأساء والضراء في العهـــود الجديـــدة على يد الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية؟ وما لنا نحوم في الأجـــواء البعيدة... انظروا إلى الذين غدروا بدولةٍ عالية، كانت عنصر موازنة في المـــنطقة المباركة التي امتدت عليها حتى أوائل القرن العشرين من أفريقيا إلى الـــبلقان ومـــنها إلى أجزاء من آسيا، وأمة مجيدة، ألم يصبهم وبال ما صنعوا أضـــعافاً مضـــاعفة؟ وماذا عمل صراخ "قرطاجة" الآيس، ثم عويل النصارى الأوائـــل المفزع، وأنين المظلومين جميعاً في الإمبراطورية الرومانية الشاهقة؟ ألم تسقط قاعاً صفصفاً؟ وانتزاع لنين وستالين وهتلر وموسوليني من بدن الإنسانية كـــورم خبيث، بتماثيلهم وعواطفهم وأفكارهم، أليس ذكرهم باللعَنات اليوم بسبب طغيانهم الذي فاق طغيان أعتى جبابرة التاريخ؟

إن المســـلمين الأوائـــل، المظلومين والمغبونين، قد أغرقوا أعداءهم في بحر

---

١ "سدوم وعاموراء هما –حسب المعلومات التاريخية– مدينتان كنعانيتان في جنوبي البحر الميت أبادهما الله لشيوع الفساد حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد. ولا زالت بعض آثارهما شاخصة. (المترجم)

تخاصمهم فيما بينهم، ونشروا الألوية في أرجاء الأرض بعدالتهم. فكانت "بدر" و "فتح مكة" عنوان حاكمية الحق والعدل، وكانت "أُحد" عنوان ظفر المظلوم والمغبون. وظلت الانتصارات تترى ما دام السيف في كنف القلب... وحتى المواقع الظاهرة بسيماء الهزيمة تحولت في تلك المرحلة المباركة إلى ظفر وفوز، وازدانت "أقواس نصر" على الطرق الموفية إلى المستقبل. ونقيض ذلك، إذا انتقل السيف إلى كف القوة، ووُثّقت ألسن القلب بالأغلال. ألم تخلف — إذ ذاك — كل حاكمية مادية، متلبسة بلبوس النجاح، فشلاً وهزيمة في الأرواح؟ فحولت وتيرة الظفر والفوز إلى ميادين تصول فيها الحسرة والهجران؟

فمهما كان الاسم والعنوان، فالشر يلد شراً، والظلم ينقلب إلى مظالم تدور حول حلقة مفرغة ودائرة فاسدة. والذين يزرعون الفتنة، أمس أو اليوم، يحصدون الشر، والذين يزرعون فسائل الخير يجنون ثمار الخير والبركة. وفي الواقع، ربما تعرضت نتائج مساعي الخير والشر إلى إمهال مؤقت، لكنها ظهرت وبرزت حينما أينعت، فأذاقت الظالمين الآلام في حسرتهم، وصارت وسيلة لإنقاذ المظلومين وإسعادهم. وقد تنقضي سنوات أو عصور بين السبب والنتيجة. ولكن حين حلول "الوقت المرهون"، والإحساس بالأثر، تغدو النتيجة عين الجنة للأبرياء، وعين الجحيم للعصاة والظالمين.

ويمكن أن نفسر ذلك كله بالمُعَيّنية -أو بالتناسب بين السبب والنتيجة- التي في روح التاريخ بمعنى من المعاني، أو الأصح والأصوب: أن نشرحه وفاقاً لروح العدالة في الشريعة الفطرية، أو نتقبله سبباً في تكرر التاريخ. ومع أن الأسباب القابعة خلف حوادث التاريخ كثيرة لا تحصى، لكن القدير المطلق جعل

الأسـباب ستاراً لمشيئته وقضائه، وأحاط دنيانا بها. فهذا لطف إلهي ذو حكمة -كمـا هو في الإرادة- وهبه الله تعالى للإنسان. وهو وسيلة لنا وزينة لازمة نتزين به لتنفيذ التكاليف التي علينا.

مـن هـذه الوجهـة: قد يكون دبيب تحركٍ صغيرٍ بدايةً لكيان كبير بعد سنوات وسنوات، وقد تحصل نتائج وخيمة تزلزل العصور من قناعة خاطئة أو تصرف سقيم.

ولذلك، يحق لنا أن نترقب نسيجاً مباركاً بألوان الغد السعيد يحظى باهتمام الإنسانية جمعاء، من هذه النقوش الصغيرة التي تغزلها بمغازل أفكار الخير أجيالٌ محظوظةٌ في الزمن الحاضر.

فلسفة الحياة عندنا...

يعيش قسم من البشر من غير ممارسة للفكر. وقسم آخر منهم يفكر، ولكن لا يعكس فكره على واقع الحياة قط. أما ما ينبغي فهو أن يعيش الإنسان وهو يفكـــر، وأن يبتكر أنماطاً فكرية جديدة إذ يعيش، فيتفتح على آفاق مُركّبات فكـــرية مخـــتلفة. والذيـــن يعيشون من غير فكر هُم دُمى تُمثّل فلسفة حياة للآخرين. هؤلاء يلهثون للتغير من شكل إلى شكل، ولا يملّون تبديل قوالبهم، ويضـــطربون مـــا عاشـــوا في الانحراف بين الشعور والفكر، والانـــزلاق في الشخصية، والتمسّح بين الصورة والسيرة. وقد يتقاسمون حيناً حظوظاً حصل عليها المجتمع، ويستفيدون حيناً من توافق مجرى الأمور - وكأنها تترتب حسب تفكيرهـــم وحســـهم وإرادتهـــم - لكنهم لن يريحوا أرواحهم البتة بالمحاسن والفضائل الإرادية، ولن يَشبّوا بها إلى العلى، ولن يوجهوها إلى اللانهاية. هؤلاء يشبهون برك الماء العقيمة والمحرومة من البَرَكة والخامدة والمعرضة إلى الأسون. فـــلا يبعد أن يتحولوا بمرور الزمان إلى مجمع للفيروسات ومأوى للمكروبات، بَلْه أن يفيدوا بشيء باسم الحيوية.

وهم ضحالٌ فكراً وسطحيون رأياً إلى درجة كأنهم أطفال يقلدون كل ما يـــرون ويســـمعون، ويـــنجرون وراء الطغام هنا وهناك، ولا يجدون سانحة للإحساس بأنفسهم والإنصات إلى دواخلهم وتمحيص قيمهم الذاتية... بل لا يشـــعرون البـــتة بوجـــود قيم تخصهم بأنفسهم. فيحيون كعبيد لأحاسيسهم

الجسمانية والبدنية عبودية لا انعتاق منها. ويُسَخِّرون كل شيء حصلوا عليه، ويحصلون، لخدمة الجسمانية في إطارها الضيق، ويغيّرون أعظم الألطاف التي وهبها الله للإنسان، كالقلب والإرادة والحس والشعور، إلى وسائل رخيصة للملذاهم البدنية، ويقضون أعمارهم في بوهيمية. المقام والمنصب والشهرة والمنفعة والحرص على الحياة، من أهم العوامل التي تُعيّن حركة هؤلاء وفعالياهم. وسواء أعرفوا أم لم يعرفوا، فهم يقعون كل يوم في واحد أو أكثر من هذه الفخاخ القاتلة، ويذبحون أرواحهم مرات بسكين أرذل أنواع الموت.

وليس لأمثال هؤلاء ماضٍ ولا مستقبل، ما داموا يرددون قول عمر الخيام: " لا تَشغل البَال بماضي الزمانٍ/ ولا بآتي العيش قبلَ الأوان/ واغنم مِن الحاضرِ لذّاتهِ/ فليسَ في طبعِ اللّيالي الأمان"، ويتبعون غرائزهم الحيوانية، ويرون الدنيا عشبا ومرعى، ويحيون راغمين أنف مشاعرهم ومَلَكاهم الإنسانية. فلا ينفكون من التقلب المضطرب في المستنقع و"اللوثيات".

أما الذين يعيشون حياهم مفكرين، ويجعلون — حسب درجاهم — كل يوم، أو كل ساعة، من حياهم ميناءً أو مرسى أو طريقاً للأفكار المبتكرة، فهؤلاء يمضون أعمارهم في خوارق العيش ما فوق الزمان، ومفاجآته وسحره، فيتجرعون الماضي كماء نبع مبارك، ويتنفسونه نفحةَ رائحةٍ في رئاهم، ويطالعونه ككتاب، ويسيرون إلى المستقبل هذه العُدة... ويحضنون الزمن الآتي بحرارة قلوهم، ويلونونه بآمالهم، ويصورونه بعزمهم وإرادهم... ويحتسبون الزمن الحاضر مركزاً استراتيجياً لتنفيذ أفكارهم المثالية، ومصنعاً لإنتاج

التقنـيات الضرورية في هذا السبيل، وجسراً للعبور من النظري إلى العملي... وَيَجِدّون دوماً كي يكونوا فوق الزمان وفوق المكان.

فهُـم مـن وجهة يطالعون الوجود والزمان في هذا المستوى، ومن وجهة أخرى ينسلخون من ضيق الحياة الجسمانية وينفسحون في رحاب عالم الفكر ويسيحون —وهم في هذه الحياة الفانية الموقوتة— على سفوح ممتدة إلى اللانهاية في عـالم آخر ذي بُعْدٍ أبدي... يسيحون ويدفعون عربون اللانهاية بأفكارهم وأحاسيسـهم وآمـالهم، ويتعايشون مع مشاعر اللانهاية، ويتطلعون إلى ثراء الكيـنونة الإنسانية في أغوار الرحاب اللَدُنّية التي حفروها في مغاوص قلوبهم، ويجـدّون في اصـطياد أنواع الفجاءات بالشِباك التي نشروها في قلوبهم مما لا تبصـره الأعـين ولا تستمع إليه الآذان ولا يتصوره خيال الإنسان. فترشدهم علومهـم ومعارفهم ومكتسباتهم العالية فوق المستويات، إلى ما هو أعلى، بل أعلى المعالي، ويؤمّل كلّ منهم أن يكون عُقاباً سماوياً. فهؤلاء الذين يحيون حياة كهـذه، ويجعلـون أعمـارهم مزارع لأشجار الفكر، سَمّوهم،إن شئتم أهل الحكمة، أو أبطال الفلسفة ذوي الهدى، وعرّفوهم كما تشاءون، لكن اعلموا بـأن رجال النور الذين يحيكون التاريخ برقة وظرافة نسيج الحرير، قد ظهروا دائماً من بين هذه الأرواح العالية، على مر الزمان الممتد من العوالم القديمة إلى عصـرنا الحاضـر. وحـتى أنظمـة البراهمية والبوذية والكونفوشية والطاوية والزرادشتية، التي تشبه النظم الفلسفية وليس الأديان، هي هدايا أبطال الروح إلى الإنسانية.

فإن ألحان صروح الفكر هؤلاء، تسمع دوماً في خرير تيار الفكر المديد إلى الماضي. إن الرؤى المختلفة إلى الحياة وأنماط الحياة المتنوعة وأحواض الحضارات العالمية والثراء الثقافي في الجهات الأربعة من العالم القديم والجديد، كانت دائماً من نتاج بيادر الفكر لهؤلاء الأبطال. فمع كل هذا التبديل والتحريف والإبعاد عـــن الأصل الذي أصابه، يمكننا أن نقول باطمئنان تام إن القسم الأعظم من البشر في الأرض لا زالوا يتبعون آثار ذلك المحتوى والمعنى والروح القديم —مهما تعســـر التأليف بين الحياة المعاصرة وبين هذا القول— وأظن أن الضرورة قائمة لكي نتقبل استمرارية الأخطاء —كحالة طبيعية— بحسن الظن وحسن التأويل، وذلـــك إلى أن يجـــد "الممثلون" الأبطال الأمورَ التي لم تتعرض إلى التحريف والتبديل من تلك المرجعيات.

وبـــناءً عـــلى ذلك، ما يجب علينا اليوم — ونحن نستعد للتجديد مرتبطين بأوثق الروابط بجذور معانينا الذاتية — هو أن نجهّز الأبطال الذين يجيدون تلقيح أنفســـهم بأمصال الوقاية المستخرجة من ذات أرواحهم... الأبطال المُنْشِدون القادرون اليوم على أداء الكلمات لأناشيد ماضينا من غير تعثر بشيء أو بعائق، وعلى استشعار توقد الحماس في قلوبنا المتجددة كل مرة بتلون آخر.

والواقـــع أننا سوف يطالنا خراب عظيم على أيدي صناعٍ أجانب أغرارٍ، لحـــين إعدادنا وتجهيزنا لهؤلاء الأبطال. وإبّان ذلك، ستشتغل الإنسانية جمعاء أيضـــاً بصب أساطيرها القديمة لملء فراغ القيم الأزلية الكونية التي تبحث عنها بوجدالها فلا تعثر عليها بعقلها... فتتقلب من فقدان الطمأنينة إلى دوار الأزمة، ومن دوار الأزمة إلى تخريبات جديدة.

لقـــد غابت عن واقعنا منذ قرون منظومة فكرية ذاتية، وفلسفة حياة ذاتية، تعـــتمد عـــلى الحركيات الإسلامية التي تشكل جذور المعنى لثقافتنا "المِلّيّة"، فتشـــتتنا شـــذر مذر، نحن وعالم كبير مرتبط بنا. ومن الضروري أن نميز بين النســـق الفلسفي والفكري لمترجمي نظام الفلسفة اليونانية المتجمعة في الحوض الفكري لأرسطو، من أمثال الكندي والفارابي وابن رشد، وإلى حد معين ابن ســـينا، وبين نسقنا الفكري وفلسفتنا في الحياة، الموصولة الجذور بالسموات، القديمـــة كـــالأزل، لكن الجديدة، بل الأكثر جدة من الجدة ذاتها، إلى درجة القدرة على استيعاب كل العصور، والمنضودة من الحكمة والحِكَم. فموضوع نسقنا الفكري قائم على تفسير ذي تنـــزّل من اللاهوت والجبروت والملكوت والناسوت، ومعلوم المنشأ ومنوّرٍ، ومعتمدٍ على حقيقة الخلق. فإذا استطعنا أن نـــتفهم هـــذا التفسير والتأويل بنكاته الذاتية، نكون قادرين على إبراز نظامنا الفكري. وهذا يعني في الوقت نفسه افتتاح طرق واسعة تؤدي إلى تجديد جاد على مستوى العالم كله.

لقد بذلت الجهود في سبيل نظام فكري كهذا مرات كثيرة منذ عهد محمد الفـــاتح -جعـــل الله مـــثواه الجنة- لكنها لم تبلغ الغايات المرجوة منها. هذه الملاحظـــة يمكن أن تتعرض إلى المناقشة من بعض جوانبها، لكن الحال هو هذا عمومـــاً. لقـــد جَـــدّ الكثيرون في أن يستجيبوا لمثل هذا البحث والترقب في الوجدان الاجتماعي العام، كأمثال خوجه زاده والملا زيرك، أو مصطفى رشيد باشا ومهندسي "المشروطية" (الحكم الدستوري)، ومنهم إلى كثيرين من عمال الفكـــر في المـــرحلة الحديثة، الخالصة نياتهم وغير الخالصة. لكن بعضهم تعثر

وتوقف عند "تهافت" ابن رشد والإمام الغزالي، وبعضهم غرق في دوامات الثورة الفرنسية واوغوست كومت، وبعضهم تلهى وانشغل بهذيان دركهايم... ولم تكلّ الحركة أبداً، لكن لم يحسبوا حساب العصر حيناً، أو تراكضوا وراء الأحلام وحدها، أو اتخذت الأهواء والرغبات آلهة من دون الله فتبدد في الحيرة والضياع ميراث ألف سنة من القيم "الملّية". ويا ليتنا استطعنا الآن أن نتجاوز هذه السلبيات... هيهات هيهات! فلسنا ندعي أننا ننظر بعين الرضا إلى هذا الجانب من واقعنا. فكم أتمنى أن نتجاوز السلبيات كلها، وأن نطور نظاماً فكرياً وفلسفة "مِلّية" تتغذى من مصادرنا الذاتية!

وأشير هنا إلى أن آراءنا ستتناقض مع بعضها باستمرار وسينهش بعضنا بعضاً في فخ "التعارض والتساقط"، بسبب الاختلاف في زوايا الشعور والإحساس بالكائنات وتفسيرها، ما لم نُقِم ما نبنيه على قاعدة فكرية راسخة كهذه، وما لم نمتلك نظاما فلسفياً كهذا. فيجب تحقيق عائدية مستقبلنا إلينا، مثلما حاضرنا، بهذه الأصول، وبهذا النظام، وبفيض أسلوب تتقاسمه الأجيال جميعاً. فإذا لم تتحقق الوحدة في مشاعرنا وفكرنا ونمط حياتنا، فستظل الوحدة "الملّيّة" والتضامن "المِلّي" أُمنية حماسية. فالمنطلق "الملي" والفكر "الملي"، والمحاكمة "الملّيّة"، وواردات الروح، أمور بالغة الأهمية في أي نظام من الأنظمة. فإن أي نظام فكري يستطيع أن يحقق وحدة الحس، ووحدة المنطق، ووحدة المحاكمة، وسهولة التعايش معاً لشعب من الشعوب، بالمقياس والقدر الذي يستمد من عقل الشعب ووجدانه وعالم أحاسيسه... وعلى الضد إذا تصادمت المشاعر والأفكار والتفاسير والأساليب، وتناقضت المحاكمات، فإن تزاحم

الحركة في هذه الأحوال، لا يعني كثرة البركة البتة. ودع عنك البركة، فكثيراً ما يؤول المصير إلى الاضمحلال في هذه الأوضاع. إن كل حملة وجهد في المجتمع الذي يعاني من فوضى في الفهم والتفسير يشبه أمواج البحر المرتطمة بعضها، إذ تتكاسر دوماً وتنصبّ إلى حوض عطالتها وتلف وتدور في فراغ الدور والتسلسل الفاسد. ولعلنا نجد بالتمحيص حكمةً في تكاسر أمواج البحر بالارتطام مع بعضها، لكن أمثال هذه المصادمات في المجتمع لا يخلف إلا التعفن والانحلال وإهدار النفس. ففي مثل هذا المجتمع، يكون كل فرد ذئباً يفترس الآخر، وكل فكر برنامجاً للموت. ومع أن السماء تمطر رحمة على مثل هذا العالم، لكن الهيئة الاجتماعية تبقى تحت تهديد عُثّتها. وكذلك تبقى القيم التاريخية فيها معرضة إلى الانخراق والتمزق، وتبقى المقدسات مهددة بالتبدد. ولا محل للوفاء عند الكهول في الركام البشري لهذا المجتمع، ولا مكان للفتوة عند شبابهم. فالقوى الفتية والحركية المأمول منها أن تسمو بالمستقبل كسارية العلم على هاماتها، هي التي تحتقر الراية وتشتم الماضي من جهة، وتحسب المستقبل ساحة جنون لإجراء رذائلها من جهة أخرى... أما الكهول والمثقفون الذين سلموا أنفسهم للامبالاة المفزعة، فيتصرفون كمشجعين لفكر "اللوثيات"... فتراهم يثيرون البوهيمية في الأرواح ويصبّون ماء النار على البصائر، بأقوالهم وكتاباتهم ورسومهم وبرامجهم في وسائل الإعلام.

وفي مثل هذه المرحلة، لا تحفز مآوي العلم عشق العلم وفكر العلم في الأرواح... ويلعب أصحاب أيديولوجيات معينة بالذين يمثلون القوة وكأنهم دمى، يفترس بعضهم بعضاً... ويضطر المنطق والمحاكمة والإلهام على المسير في

الممـــرات الضـــيقة للرموز والإشارات... وبدهي أن الحياة بذاتها تكون تعذيباً للحـــياة في مجتمع كهذا، عامرٍ بالنقائض والمخالفات، مقدّمٍ للرغبات والأهواء على الفكر.

والحـــال أن نظام الفكر وفلسفة الحياة عندنا رحيبة، تتناول عوالم الوجود، ومـــا عدا الوجود، وما قبل الوجود، فتقيّم الأشياء وما عدا الأشياء في كلية، وتعـــيّن معـــالم نمط الحياة في تكامل وإحاطة. فهو نظام يحقق العدالة الكونية المرتقبة في الأرض كلها بتحويل السلوك الأخلاقي إلى حال السيولة في المجتمع وأجـــزائه الأفراد، ويستجيب للمتطلبات الإنسانية، فيصل المجتمع في ظل ذلك إلى القـــدرة عـــلى تجديد نفسه ذاتيا بالتربية على الروح والأخلاق والفضيلة والتفكر. ثم يكون فكرنا الحضاري وغنانا الثقافي كسلعة رائجة في كل أقطار الأرض، فنغدو اليد المعطاء التي تقدم في ارتياح هبات فكرنا الإنساني وفلسفتنا الأخلاقـــية وفهمـــنا للفضيلة ومتلقياتنا للعدالة. وبفضل هذا الوضع والمستوى أيضاً، تنبجس الحركيات الإدارية والأصول الاجتماعية والاقتصادية في الدولة، كمـــا في مصـــادرها الأخـــرى، من الروح الذاتية للأمة، فتتحرر من أنواع "المقيِّدات" كلها. إن "التقيّدات" الضمنية المضروبة على رقابنا حتى الآن كالنير، بســـبب نقاط ضعف فينا أو مديونيات علينا، ومهما كانت خفية غير جلية، عَـــرّض نظامـــنا الإداري، وأنظمتنا الاقتصادية والسياسية والعدلية إلى العطل والفشل، وأصابها بالشلل. إن أبناء أرومتنا الذهبية الذين جعلوا الأناضول أرقى بـــلاد الأرض عمـــرانا قـــد نســـجوا أو أنشأوا أنظمتهم الإدارية والسياسية وتشكيلاتهم العدلية، بمستلزمات الروح الذاتية. فلم يسمحوا لفكر أو لمؤسسة

أو لَتَلقٍّ أن يجتاز من أبواب هذه المؤسسات التي تُعَدّ "بيوت الحرم" للأمة، ما لم يُقَــيّم بالمقوِّمات والمعايير الذاتية. وَدع عنك أن يأذنوا بذلك، فهم لم ييأسوا حــتى حين انسحابهم جانباً وقد أثخنتهم الجراح مغلوبين إلى مدة، بعد حرب ضروس مع العالم كله، ولكن مع بريق الأمل، مهزومين ولكن مع الإيمان. فلم يتوانوا عن إلقاء أيديهم إلى التهلكة لحماية أصل حياتهم الذاتية، وتراكموا حول الشــعور الـــتاريخي، وعضوا بالنواجذ —حسب إفادة الحديث النبوي— على الحركيات التي يدينون بوجودهم لها... فكانت نواصيهم عالية، وتَلَقّياتهم عن الدنيا والعقبى موزونة، وأنفاسهم حرى، ماضين نحو "إحياء" جديد...

وقــد نستطيع أن نكون مثلهم، وقد نتقدم عليهم، ونحن نترقب فجراً يتبع فجــراً في هذا الزمن، إذا قيّمنا الدنيا التي نعيش فيها تقييماً صحيحاً من وجهة أفــق الحكمــة الذاتية، ففسرنا الأشياء والحوادث تفسيراً صحيحاً، وشخّصنا المتطلــبات الأساسية لبناء إنساننا الداخلي، وانشددنا بفكرة التواجد والحضور إلى الأبد. وما الذي يعيق الأجيال البصيرة عن تقدم الصفوف، ما دامت قادرة عــلى تقيــيم الماضي والحاضر والمستقبل على صعيد واحد، وحامية لأعراف المجتمع وتقاليده وحركيات تاريخه، وماهرة في تفسير تكرر التاريخ باتجاه تجديد الذات؟

ومــن المفيد أن نذكر مرة أخرى بأن مسؤوليتنا الأساسية اليوم هي إشعار وجــدان الأجيال بمؤثرات الكدح المبذول منذ عصور مديدة، والعقائد الإيمانية المتشــربة في النفوس، والثقافات المتأصلة الجذور، على قدر أعماقها في ذاتها، وذلــك بتطوير حس التاريخ في الأمة. فإذا نجحنا في هذا، فلن يخطر على بال

أحـــد بعـــد جيلين أو ثلاثة أجيال أن يعيش فوق تراب هذه البلاد، ثم يستعير لمؤسسات الشعب المتنوعة مصادر أجنبية عن حركيات روحنا ومعنانا.

نعـــم، نحن نجلب عناصر حياة الغد من ماضينا. فإن استطعنا أن نعجنها في معاجن ثقافتنا الذاتية بنور الدين وضوء العلم، نكون قد جهزنا خميرة أبديتنا.

أجيال الأمل -١

إن أجيال الأمل باعتبار الزمن الحاضر هم ممثلو العلم والإيمان والأخلاق والفن، وهم مهندسو الروح لمن يأتون بعدنا. وسيشكّل هؤلاء تكوينات جديدة في كل شريحة اجتماعية بتفريغ حرارة الإلهام لقلوبهم المتغذية بالأخرويات إلى الصدور المحتاجة إليها. وإن ضياع حظ كثير من الأجيال في تاريخنا القريب، وهدرهم، بل سقوطهم في الجنون والهذيان، كان بدرجة كبيرة لعدم التقائهم بمثل هذا الجيل الأمل.

لقد عشنا في القرن الأخير، أو القرنين الأخيرين، هزائم متتالية حتى في وسط النجاح! وكثيراً ما خسرنا في سياق النصر! ففي تلك المرحلة التي كنا نفترس بعضنا البعض كالذئاب، خلفنا للأجيال الآتية من بعدنا إرث الحقد والبغض والتعصب السياسي. ففي تلك المرحلة لم يَخْلُ الذين خاضوا في السياسة أو الذين شاركوا فيها من خارجها على السواء، إما من احتساب كل وسيلة لتصدّر فريقهم وكوادرهم وسيلةً مشروعة، وإما من توهم أن استلامهم للحكم يغيّر كثيراً من الأمور أو ينقذ الوطن. ولم يفهم الطرفان يقيناً بأن الوصول إلى المقاصد المرجوة لن يتحقق إلاّ بانقلاب يعتمد الدوران في فَلَك الإيمان والعلم والأخلاق والفكر والفضيلة. ولأنهم لم يدركوا ذلك، ظنوا أن التغير والانعطاف الكبير المرغوب فيه، هو هذه التغييرات الجوفاء والخاوية من المعنى، والصورية، والشكلية، وتشبثوا متعلقين بأذيال تغيير المكياج والأصباغ

والألـــوان في عملية الترميم التاريخية الكبيرة. وزد على ذلك، أن بعضهم باع للشـــيطان فكرة "المِلّيّة" الراقية بأشياء بخسة وكأنه "فاوست"[1] غرٌّ لأنه غريب عـــن قيمـــنا "المِلّيّة" الحقيقية. ولم يَملّ هؤلاء من الاضطراب المستمر حسب متطلبات الحال من حيث المنافع والمطامح المتقلبة، من أجل صياغة شكل للملّة عـــلى صـــورة معينة يوماً، وعلى صورة أخرى يوماً آخر... بل الأصح على إظهـــار "الملّـــة" بهذه الصور الشاذة العجيبة. فتنفسوا هواء "الطورانية" مرة، وهمهمـــوا مـــرة بمقـــولات "الشـــعب، الفلاح، القروي". وقضوا وقتاً مع "الأرستقراطية" مرة أخرى، ثم قالوا: "الديمقراطية"، وغمزوا "للشيوعية"، ... لكـــنهم لم يـــنجوا من الهَيْمِ على وجوههم أبداً! فاتخذ مثقفونا خاصة، حلم فرنســـا، والإعجاب بانكلترة، والرغبة في ألمانيا، وعشق أمريكا والشوق إليها، حركـــياتٍ لتفسير الحياة وموانئ لرسو السفائن المبحرة إلى المستقبل، بنَهمِهم المختلط والفاقد للمعايير، وحسب تقلب الزمان.

وكان الحال يقتضي أن تُرسَّخ الفكرةُ المشتركة بيننا كشعب، وأعني الدين والعاطفـــة الملّـــيّة، على القواعد المتينة والرصينة التي تسمو فوق كل الأحلام والمتخـــيلات وتـــتجاوز حقائق الأرواح المنفردة، وتعتمد على الإيمان السليم المـــتين، والفكر المتأصل، والأخلاق المستقرة، والفضيلة المتمكنة من الأرواح. فمثل هذه الحركة تستطيع أن تَعِد الأجيال القادمة بالخلاص المأمول... حركة أخلاقـــية ثابـــتة التوجه، منفتحة على الامتداد والتغيير في فَلَك ثرائها الروحي

---

[1] فاوست: ساحر ألماني قيل إنه باع نفسه للشيطان لقاء الخيرات الأرضية. اتخذه بعض الشعراء بطلاً لمؤلفاتهم، ومنهم غوته في مأساة شهيرة. (المترجم)

والمعنوي الذاتي، غير متزحزحة عن محور "رضا الله"، موصدة الأبواب تماماً في وجه المنافع والمطامح. وبعكس الحال، سنعجز عن احتضان الروح والمعنى الخاص "بِملّتنا" ذاتياً، وإحاطته بالحماية، وإيصال الأمانة إلى الأجيال القادمة بأكمل خصال الأمناء، ما دمنا في انتقال على الخطوط المنحرفة باستمرار، وفي غبش الإيمان المختلط الذي لم يبلغ اليقين في قلوبنا ومفاهيم التوجهات المختلفة والتَلَقيات الحضارية المتنوعة في عقولنا.

لا يغيب عن العارفين بهذه المراحل المضطربة ما فقدناه، وما ضيعناه من قيمنا الذاتية في الماضي القريب. ولم نكفّ إبّانها عن التفكير بابتكار أسلوب جديد وفلسفة حياة جديدة، تُبعد عنا المفاهيم المختلفة اختلافا بيّناً، والتَلَقّيات البعيدة عن بعضها بعداً شاسعاً، والأفكار المتناقضة تناقضاً كلياً. لكن هيهات، هيهات. فكم عمرٍ انقضى هدراً، وما زلنا نسلو بخيال أن نبتكر أشياء جديدة! ويبدو لي عسيراً أن نجد أسلوباً جديداً وفلسفة حياة جديدة بعد اليوم، كما لم نجد في السابق. ذلك، لأننا لا يمكن أن نصل إلى مركّب فكري جديد وأسلوب مبتكر في التعبير عن الذات من دون احتضانٍ لجذور الروح والمعنى في حياتنا الذاتية. لقد فشلنا في بلوغ نظام فكري جديد وأسلوب مبتكر... بل زد على ذلك، أننا عشنا باستمرار غثياناً واضطراباً تحت تأثير مُناخٍ كثير الأشواك، وكأننا مضطرون إلى الإحساس بأشياء عديدة في وقت واحد! وإبّان ذلك، أُهدِرت عبثاً هنا أو هناك فرصٌ سنحت لنا، وطاقات كامنة للقوة والمنعة.

ومهما بدا علينا وكأننا نعمل شيئاً منذ قرن أو قرنين، فإننا لم نُقِم أثراً نطمئن إليه أو نُغبَط عليه، يجسد إيماننا المنساب إلينا من أعماق تأريخنا ونمط

فكـــرنا وأخلاقـــنا وثقافتـــنا وفننا واقتصادنا. ولئن أجريت في مراحل معينة مداخلات جراحية تأجيجاً للأحلام أو لأهواء الشباب، لكن لم نسمع إلا جماً كثيراً من الأمنيات الخادعة عن حاجاتنا الحقيقية مثل تفسير العصر وتقييم العلم وتفهـــم حكمـــة الوفاق والاتفاق والتغلب على الفقر الذي يقصم ظهرنا منذ زمـــان طويل. إن نجاتنا من هذا الذهاب الذي يحبسنا في حواسنا فيلهينا، ومن الأفكـــار الهزيلة، سيتحقق على يد أبطال الإدراك والبصيرة واللدنيات الفاهمين للعصر والعاشقين للحقيقة بشُبوب اشتياقهم للعلم، والمُحْدَودَبة ظهورهم تحت ثقـــل المعضـــلات الحقيقـــية الحاضرة والقلق المتصور في المستقبل، والمنعكسة دواخـــلهم على سلوكهم وتصرفاهم، والمتنفسين هواء قلوبهم، والمتطلعين دائماً إلى مـــا خلف الآفاق... أبطال اللدنيات الذين يئنون بآلام الأجيال إذ يسعون للنهوض بها إلى درجة معينة، ويحولون مستقبلها الكدِر إلى دموع في أرواحهم فيـــنوحون نواح أيوب عليه السلام، ويتقاسمون معها أوجاع يومهم وغدهم، ويَشُـــبّون إلى العـــلى بالشكر باحتساب لذائذها أنعما من الحق تعالى. هؤلاء الذين يستلهمون من تاريخنا الحي المزدهر بالألوان، الممتد إلى مئات السنوات، ويســـتقوون مـــنها، فيـــنفخون روح صيرورة "المِلّة"، "مِلّة" حقيقية ومتدفقة بالحـــيوية، ويـــئزون الشباب بفكر الإيمان والأمل والحركة، ويفتحون تيارات جديـــدة من حوض فكرنا "المِلّي" المستكين منذ زمن طويل في الشباك القاتلة للخمود الرهيب. ونحن كأمة سنهرع في هذه التيارات إلى معابدنا التي فقدناها في قلوبنا، فنجهش بدموع الوصال، ونعود إلى مآوينا ومساكننا الدافئة كزوايا الجـــنة، فنلتقي بانعكاسات الجنان التي ضيعناها منذ أمد بعيد، ونكتشف مجدداً مدارســـنا القائمة على قواعد البحث عن الحقيقة وعشق العلم، فنتعرف على

الوجود كرة أخرى من خلال منافذها المفتوحة على الكائنات... ونــزداد حباً للجمــيع، ونتعــلم اقتسام كل شيء، ونحتضن الجميع على السفوح الزمردية لقلوبــنا بــأخلاق العــيش في اضطراب وقلق متزايد... ونطفح بمشاعر الفن والصنعة إزاء الوجود، ونفكر في المناسبات البشرية بالأنّات والخفقات والدموع الحرى، فنعبّر عن أنفسنا.

أجيال الأمل -٢

أن إحياءنا "بالانبعاث بعد الموت" مرة أخرى، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأطقم عديـــدة مـــن الأبطـــال، الـــبالغين أنوار الحقيقة بعد اجتيازهم آفاق العلم، والمـــتحكمين في ضـــبط الرغبات والمتطلبات البدنية ضمن إطار الضرورات، والســـامعين بوجدانهم دوماً أناشيد الماورائية تناديهم إلى الله، المعبرين عنه تعالى ببـــيان بلا حرف ولا لفظ ولا صوت في هيجانهم ونشيجهم، المتنفسين أنفاس أنسه شهيقاً وزفيراً.

ولأن هـــؤلاء الأبطال أعدوا أنفسهم منذ البداية عبيداً للحقيقة في رقّ يأبى الانعتاق، فهم لا يكونون أسارى وخدماً للمطالب المشتتة في المجتمع بتاتاً، بل يحسون دائماً بنير العبودية للحق تعالى في أعناقهم، فيقومون ويقعدون بملاحظة اللانهاية باستمرار، ويقضون أعمارهم تحت زخّات الإلهام، ويلحون في توسيع وليجة الباب مع كل إلهام جديد من أجل واردات أخرى، وفي جهد من أجل إبـــلاغ الآحـــاد إلى الآلاف بحظوة امتيازهم عن الآخرين، فيتجرعون أذواق ولذائذ وحظوظ البقاء في الفناء، في كل لحظة، وفي كل مرة.

ســـير حياة هؤلاء الأبطال يتجدد باستمرار في إطار الإيمان والعرفان والمحبة والعشـــق والذوق الروحاني، وتخفق أجنحة فكرهم الواسع كالآفاق سابحة في الـــرحاب الممّـــيزة بين الفانين واللانهائي. رأس مالهم العلم والإيمان، ومنهلهم القديـــر المطلق، وطريقهم السبيل الأعظم الذي سلكه كل من جاء وراح من

صلحاء عباد الحق تعالى. ماضون إلى الأبد، واثقين بقوة الدين القاهرة، وبعنايات الله تعالى المتجلية فجاءة، ومرشدهم ﷺ... وهكذا تختنق مرحلة أخرى من الإلحاد ومدة "الفَتْرة"، وتتهاوى في مهاوي مخالفتها الذاتية للطبع والفطرة.

لم يعش الإنسان على مدى التاريخ من غير علم وإيمان، ولم تقم مدنية من غير معبد ومعبود. وقد مرت فترات جعل الإنسان أُفْقَه ظلاماً وقتاماً بانحداره في مهاوي الحرمان من العلم والإيمان. لكن بعد كل سقوط، يستشعر تعلّقه بالله في وجدانه من نقطة أعمق، فيتوجه إلى حال فوق الحال السابق تماسكاً ومعنىً وسرعة وجذباً. فبقاء المدنية وعيشها في فراغ باعتبار المعبد والمعبود، أو الإنسانية في خلاء باعتبار العلم والإيمان، حال موقوت بمدة قصيرة لا محالة، في الماضي وفي المستقبل. فلن يُنتزع فكر المعبد والمعبود من قلب الإنسانية، ولن تنفصم عرى البشر من الله تعالى تماماً، إلى أن تطوى السموات كطي السجل للكتب وتدك الأرض دكاً دكاً... وتقوم القيامة. ولأن الوجدان منفتح بالأصل على الله تعالى، فإن ظلمة الآفاق وقتامها الطارئ أحيانا تمر سراعاً كالخسوف أو الكسوف... ويعقب الظلمات الضياء، والغروب الشروق... ويأتي يوم يقر فيه الزمان، ومن في الزمان، على الفَلَك الذي أمر به الله تعالى، وبأحكام الله القاهرة بالمناهج المعينة في الأخرويات، والمقررات المبيُّنة سلفاً.

إن الأجيال الحاضرة تبحث في كل مكان عن ذاتها، وعالم وجدانها، والجنان التي أضاعتها. وإن توجهاً منها بهذا الاعتبار وحده، يكفيها للعثور على بطلها وبلوغها خط الحق. أوَلَسْتَ ترى الوجدان وقد قَرّ في فَلَك طبيعته

وفطـــرته؟ وأن الله يُسْتَشْـــعَرُ به في أنفاس الوجود والصورة واللون لكل شيء يسيل إلى نفوسنا من مداخل الآذان والعيون والأحاسيس؟

وزيـــادة على ذلك، بدأ الإلحاد يندحر مرة بعد أخرى، بل بدأ بالانحلال والانهيار، بتهافته وخوائه الذاتي، بعدما سل أو انتزع من الأشياء الروح والمعنى ليستغلها في الهوى والرغبة والأحلام... وإبّان ذلك دخلت الأرواح الباحثة عن حقيقتها إلى سياق اكتشاف الذات مرة أخرى. فلا بد — في هذه الحال — أن تفـــتر تعلقاتـــنا إزاء الأشياء المعتادة رويداً، وأن تتعيّن المرجعية بخوارق بوصلة الفطرة التي هي عنوان إحساسنا في القلوب بعجزنا وضعفنا، وبفضل استشعار "مركـــز الاستناد" و "مركز الاستمداد" في أعماق وجداننا... ومن ثم تنسلخ إراداتنا عما يُضيّق عليها، وتتوجه إلى متطلبات اللانهاية وأمانيها.

وفي هـــذا السياق أيضاً، يُكسِب الإيمان والعزم -وهما أهم حركية معنوية للـــنجاح- كـــل واحد قوةَ روحه اللدنية، فتؤجج هذه القوة الروحية الآمال والإرادات، فتبدد وتبعثر شؤمهم وتهافتهم، وتعبر بهم الجسور المتصلة بالصيرورة الذاتية ليصلوا إلى الله تعالى.

فإن أسرع وأقصر وأسلم طريق يوصل الإنسان إلى الحقيقة هو طريق الإيمان المجهـــز بالعـــلم والعرفان. لقد كسب الروح دائماً أعظم النصر وأعجبه بهذا الطريق. فحيثما افتُقِد الإيمان غير المتغذي بغذاء العرفان، احتلت القوة العمياء محـــل الحقـــيقة والحقوق... ولا مفر في مثل هذه الأحوال من مواجهة عنف القـــوة... فيكثر اللجوء إلى السلاح، ويأمر المال فيطاع، ولا يُسمع إلا صوت

المعــربد، ويُرغّــب إلى الــرياء وتروج بضاعته. فمن المحال في هذه الأحوال الوصول إلى روح الوجود، والتطلع إلى ما وراء الوجود.

والحـــال أن حقيقتنا موصولة اتصالاً وثيقاً بروح اللانهاية. ولاستشعار هذا الاتصـــال والإحســـاس بما تَعِد به هذه العلائق، يجب علينا أن نبذل تضحيات كـــثيرة. وجلي للعيان أننا إن لم نتخلَّ عن السعادة الفردية والحظوظ الدنيوية والمقـــام والمنصب، بل حتى عن مشاعر فيوضاتنا المعنوية، فلا محل للكلام عن مثل هذه العلاقة، وهذا الاتصال. ومتى ما تحققت هذه العلاقة وهذا الاتصال، فســـتولد دنيا الغد التي يكون "الحق" فيها تاجاً فوق الرؤوس، وتلقى الحقيقة التوقير، ويُعدّ التفكير بالقوة وملاحقة المطامح عيباً وشيناً.

نحـــن نحسب أنفسنا في السبيل، قاصدي عالم مضيء كهذا، ومنذ سنوات طويلـــة. ومـــن دون تكهـــنات البحث عن أمارات الفجر حولنا، ومن غير الانشـــغال بالأبحاث السحرية لأسرار دنيا الرياضيات، نقوم بتقييم كل شيء تشير بوصلة أرواحنا إلى صحتها وسلامتها حسب إرشاد الثوابت الإلهية، فنَجِدّ في استكشـــاف المشـــيئة الإلهية ونقاط التقائنا بما تعدنا به تلك المشيئة، وذلك بإرادتـــنا التي هي أعظم وسيلة تعلقٍ بمشيئة الحق، ثم نتقدم سعياً في هذا السبيل كأبطـــال راهـــنوا بحـــياتهم ووجودهم كله وذلك من أجل إحياء نمط حياتنا المبارك.

ويـنـــبغي على كل واحد أن يقول لنفسه بمسؤولية فردية جادة: "اليوم يوم الفعال. فإن لم أنهض للعمل، فلن ينهض غيري أيضاً" ثم يكز فرسه ليندفع إلى مقدمـــة الصـــفوف لرفع الراية... من غير أن يقع في منافسة أو غيرة، فاسحاً

الســـبيل لمـــن في يمينه ويساره في الحركة والسعي أثناء تقدمه لحمل الراية. إن الكـــثير منا قد أطفأ قلوبنا وصب ماء النار في عيون أرواحنا بقسم من أعماله، سواء بعلم أو بغير علم. في هذه المرحلة المظلمة، لم ينتفض أكثرية شعبنا ليحفز أنـــوار الحقـــيقة في جوهـــره، و لم يتوصل إلى الحركيات المعنوية التي تعد من حـــيويات إحيائنا كالماء والهواء والخصب. وإننا نستطيع في حاضرنا أن نسير بالاتكال على الله تعالى واعتماداً على قوتنا الكامنة، وعلى روابطنا بالأخرويات كافـــة. وإنّ نظـــرَنا إلى الأشـــياء كلها بعين الروح، واستماعنا إليها بأذنه، وامساكنا بها بأيديه، وتقويمنا إياها بمحاكمة منفتحة على الإلهام، مرهون بإعادة النظر في هذه القوة الكامنة والروابط بالأخرويات. ونلخص الموضوع بمقترب لنيازي المصري: "لا تبحث عن الروح والمعنى اللذين ينقلانك إلى الصيرورة في خـــارجك. التفت بجيدك واستمع إلى وجدانك، وابدأ من نفسك في السياحة نحو الصيرورة باستعمال عدسة ماهيتك".

ونحن نولي وجوهنا شطر أنفسنا

صار هذا العصر عصر معضلات تواجهنا ونعيشها، ولا زال. وهنالك معضلة منها تلهي عن بقية المعضلات لعمقها ومقاومتها للدواء والمعالجة واستعصائها وعاجليتها إلى درجة لا يمكن إهمالها. هذه المعضلة العملاقة هي إهمال شعبنا، وشبابنا خاصة، لقيَمنا الذاتية. فإنها إن لم تعالج قبل فوات الأوان وبما يكفي عمقها وبأيدٍ ماهرة كفوءة، فستواجهنا معوقات غير متوقعة، وقد تقع هزائم في مضمار النجاح، ويسَودّ مصيرنا بحوادث مستجدة نصاب بها في مفاجآت غير منتظرة.

إن الدمامل التي ظهرت أمس في صور الإهمال والغفلة واللامبالاة وضعف الكفاءة وأحلام التغير، صارت أوراماً، ثم انتشرت في جوانبنا وأخضعتنا لنفسها، بمضاعفاتها السريعة والمتلاحقة... حتى استناخت خريفاً على كل شريحة من شرائح المجتمع، وسلبت منها ألوانها الأصيلة. فكم مرة تزعزعنا بهذه الأمراض وعشنا سوء الطالع بتغلبها علينا؟ وكم مرة حسبناها حظنا الأسود المحتوم وضوينا وضنينا؟ وكم مرة صرفنا كلمات غير مناسبة ضدها تنفيساً لغضبنا – مع مناقضتها لأسلوبنا –، أو قمنا وقعدنا غضباً إذ لم نجد قولاً مناسباً عنها، فلم نزد على "لا حول ولا قوة إلا بالله"؟ وفي خضم هذا التلاطم، اكتوى بعضنا في دوامة الأحاسيس القاتلة هذه، واكتفى بعضنا بفضح أخطاء الخائضين في "اللوثيات".

وكان ينبغي أن نحتضن أولئك بعرض حياة جديدة وندية في الأفق، واحترام حماسهم والتساهل مع هذيانهم ببعض المعاذير، من أجل امتصاص حرارة الشدة والغضب فينا، بل وبمجاملتهم بالمداراة في بعض الأمور لإيجاد مناخ للتفاهم في الأمور المشتركة أصلاً... بدلاً عن اتهام خط سيرهم وتخطئتهم. والواقع أن مجتمعنا يتحمل في مبناه أكثر من فكر وفهم وفلسفة معاً. لذلك، نرى في طريق مغامرتنا "المليّة" الخاصة، آثاراً موضعية لفرنسا، وتوقفاً عند المتلقّيات الألمانية، ومجاراة لنمط الفكر الإنكليزي أحياناً، واليوم نجد نشوة مع الحرية الأمريكية، وفي كل الأحوال نضغط على السواتر الجانبية لطريقنا الرئيسي.

هذه المفاهيم والتلقّيات والفلسفات تؤثر تأثيراً سلبيا في ثقافتنا "المليّة". لكن يمكن تقييم مثل هذا التنوع في كل الأحوال بالغنى والثراء. المهم عندي هو أن يحافظ الشعب على قيَمه الذاتية ودورانه في الفَلَك الذاتي. لكن الباعث للأسى أن المقتدرين على التقويم المفيد لهذا التنوع الثقافي، قد عجزوا عن التقويم والاستفادة، في الوقت الذي يُعّد كل منها عنصراً لطرح بديل مستخلص من تضاد الطرحين الآخرين. فصرنا نشبه أصحاب منجم أغرار يرون الطريق إلى منجم الذهب عبر الحجر والتراب فيحارون في مسيرهم إما بالالتهاء والتعلق بالحجر والتراب أو الوقوع في حرمان الذهول عن الأصل بظن ساحة المنجم التي يجولون فيها منجم الذهب بنفسه. وكم مرة حصلنا على مصادر للنور لم نستفد منها للتنوير، بل استحوذنا على النار واللهب منها وسببنا حرائق حيث نريد التنوير.

ومن العجائب أن فينا من إذا علم مقدار قطرتين استخف بالآخرين، أو استطاع أن يفكر مقدار قطرة ظن نفسه فيلسوفا! وإن من مثّلَ القوةَ وضع

العقل والمنطق في الحرز والاحتياط وانطلق في طريقه تحت وصاية القوة العمياء، وإن السياســيين جعلوا غايتهم التحزب ورهنوا كل شيء بالأحزاب، فافتقدوا كــل شــيء للتحزب، وعجزت فعالياتنا الاقتصادية والسياسية والثقافية عن الانفــلات من شِباك الدائرة الفاسدة لدور "التعارض والتساقط" بسبب الحسد والتنافس والبَرَم بالآخرين، وحتى الفتيان تضاربوا منذ نعومة أظفارهم بأغصان الزيــتون التي يحملونها أو بالدمى الناعمة المصنوعة من الريش، وكأنها عصي، وصرف الشباب اندفاع الحركية في أرواحهم إلى مجريات ضد "ملّتهم"، فهدموا وخربوا روح "الملّة" بدلاً عن تعمير اعتبارنا المهزوز وكرامتنا المنكسرة.

فلماذا كل هذا؟ لماذا لا نتحابّ وفي إمكاننا أن نتحابّ؟ لَماذا لا نقيم خلّة وصــداقة دائمة؟ لماذا لا نتقاسم الفرح والترح، والسرور والحزن؟ هل المجاهدة والغــيرة على فتح القلوب أشد علينا من الكفاح في ميادين الحرب؟ أم أن أثمن مضــغة في الإنســان، وهــو القلب، موصد الأبواب بوجه الحب والتسامح والاحتضان والتقبل والتقاسم، ومفتوحة للبغض والحقد والغلظة والبرم والانحصار الفكــر؟ كــلا... كلا! قسماً بالله خالق القلب إن أثمن عمق وأغنى جانب في الإنســان، لا يمكن أن يبقى مغلقاً بوجه الفضيلة بهذا القدر، ولا مفتوحاً على اللوثيات بهذه الدرجة!

إن أعظــم الفاتحين في الدنيا، بدأوا كل عمل، من أول وقفة للفتح، وأعني القلب. ثم انتشروا من هذا الميناء إلى أصقاع الأرض في أربع جهات. فلولا أن دخلــوا قلب الإنسان في الأناضول، لما تحقق الظفر في "ملازكرت"... ولولا الإحساس بالأمل في خفقان صدور الفتيان الشجعان المحاصرين لاستانبول، لما

أخمــدت المدافـــع المدوّية من خلف السور نار بيزنطة. نعم، إنها شبكة الشفقة والمحبة التي تظهر في قلوب المؤمنين كحسٍّ أو تعلّقٍ، ثم تسري في الصدور كلها وتملؤها، حتى إذا بلغت خيوطها أرضاً، هرع الناس إليها بقلوبهم، فتتقدم إليهم بدلال، وتستجمع نفسها بدلال، تروي لمن تضمهم إلى صدرها أساطير المحبة.

فمن أين نفذ فينا الحقد والبغض والعداء والبرم، ما دام تاريخنا بريئا من هذه الأمــراض؟ لماذا يبغض بعضنا بعضاً، وننصب الفخاخ لبعضنا، ونفترس بعضنا افــتراس الذئب؟ بل لماذا نحرم الحياة بعضنا على بعض؟ مع أننا منذ قرنين نكنّ إعجابــا وحباً عميقاً لفرنسا وألمانيا وإنكلترة وأمريكا، وأخيراً لليابان؟! أم أننا مصــابون بمرض في "الشخصية"؟ وإلاّ، لماذا نقول بلسان الحال "لا خير فينا! فلنلجأ إلى الأرواح الأجنبية!" فنطرح القيم التاريخية لألف سنة في القِمة كطرح القُمامة، ضحية للأحلام والتخيلات؟

فلنســتمر نحن في ابتكار معضلات عبثية من العدم والفراغ... ولكن إبان ذلك، نشأت أجيال عديدة بلا مستند وفَلَك وعرفان وفكر، وبدهي بلا مِقْودٍ ولا رُبّــان، في ظـــل الأهواء والرغبات وخيالات الأحلام! فاقدةً ملاحظاتها الميتافيزيقية، غائبةً عن صورها وشخصيتها "المِلّيّة"، هائمةً عُمراً في وهم أن تجد جوابــاً عن سؤال: "من أنا" في الاسمال التي استَجْدَتْها من سبع عوالم! فبقيت مضــطربة في أسْر مَدِّ المادة وجَزْرِها، وعاشت بلا لسان ولا قلب، وخلطت أحــيانا الديــن بالأساطير، وفدت الأخلاقية في مراسيم الترحيب بالإباحية، وصــبغت تلَقّــيات الفن بلون الشهوة، وحولت الشعر والموسيقى إلى رضاب

يسيل من فم البذاءة... ثم وجدت نفسها في وسط الساحة القاتلة التي يتصارع فيها خمسون نوعاً من هذه الأغلاط! وبدهي ألا تكون النتيجة إلا كهذه!

فــلا غرو بعد ذلك أن يعتدي هذا الجيل على اليمين والشمال، ويستخف بماضيه، ويضيع ثقته بنفسه وثقة الآخرين به زيادة على تضييع إيمانه، ويتجرع آلام الحســرة على الحب زيادة على مشاعره الإنسانية. بل ويعهد بتربية الأبناء إلى الأيــدي الأجنبــية في هــذه المرحلة، ويَشُبّ فكره كأطفال في المدارس الأجنبية... هم منكوبو البعد والقرب، القريبون من الأغيار، فهم أدنى إليهم من أنفسهم، وهم الذين يحسون بحرارة بعضهم لتداخلهم، لكنهم تقشعّر جلودهم في بـــرد التواصل بينهم. هؤلاء هم الذين انخرق إيمانُهم بألف شبهة وتذبذب، ثقتهم مهزوزة الأساس، آمالهم شذر ومذر، قلوبهم كوادٍ نضب ماء مجاريها... مشـــاعرهم الإنسانية في عهدة الحقد والبغض والعداوة، وقلوبهم الخاوية ساحة جـــولان المخـــاوف... مستســـلمون لغياب الأهداف والغايات مَدّاً وجَزْراً، ومدحورون لمسافات غيابها قصراً وطولاً، آفاقهم مدلهمة السواد، يعانون صعود الصـــعاب حـــتى في الهبوط! مسلوبو اللب والعصارة كأنهم قائمون بقشورهم وحدها... صاروا في حال مقزّزٍ في كل شيء!

والواقـــع أن نفخ الحياة في هذه الجنازة الحية عسير. لأن مثل هذا الجيل قد صـــار غريباً عن حياة من نوع حياتنا، ومخالفاً لقيمه الذاتية. ومع كل ما فيه، فـــإن واجـــب النهوض به ملقىً على عواتقنا. ونحن نؤمن بأنه سينتفض على قدمـــيه كسامع نفخة الصور، ويهتف بجِدّ إقبال وجوده كرّة أخرى، عندما تحيي المشيئة الإلهية إرادتنا. نعم، لن يكون عملاً يسيراً ملء الفجوات والخلال

المنفرجة في بناء المجتمع وإصلاح ما فسد وعطب بعد قرون من الإهمال الوبيل. لكن ورثة الأرض لفكرٍ غيّر إدباره وإدبار المظلومين والمغبونين الذين في وصايته إلى الإقبال مرات عديدة، سيجتازون محنة هذه العوارض المهولة... فيقيمون جنات عامرة لغيرهم في جدب دنياهم. وسيملأون الفجوات والخلال في المجتمع الذي أُمِروا بنفخ الحياة فيه برحاب التسامح، وسينظرون إلى قصور الآخرين بالعدسة المصغِّرة التي تصغّر خطاياهم أنفسهم، وإلى أخطاء الآخرين بتحكيم وجدانهم الذي يعترف بأخطائه، وسيرشدون إلى بدائل كثيرة لتخليص غيرهم من الأخطاء بمهارة حكيم ماهر لا يُشعر مرضاه بمرضهم، ومن غير تأنيب لأرواحهم أو إيقاعهم تحت ظلم الإشعار بأخطائهم.

ومن غير المتصور بداهة أن يتغير كل شيء في مجتمع يتعرض منذ قرنين إلى الانقلاب في القيم والتعويد على العوائق والمثبطات بحملة واحدة من خوارق الكرامات! فليس يسيراً أن يحل الإيمان محل الإلحاد، والانضباط محل الانفلات، والنظام محل الفوضى، والأخلاق محل اللاأخلاقية والعشق الإلهي وحب "الملّة" محل الشهوة. نعم، ليس يسيراً إزالة آثار السنين وانتزاع الإلحاد الذي نصب عرشاً وسط سرادق الإيمان، واللامبالاة التي قلبت القيم الأخلاقية رأساً على عقب، واللامفيد الذي أثيرت وحشية شهيته بمنحه مكاسب على حساب الحياة المنضبطة، ثم إحلال القيم التي يريدها الله تعالى ويوصي بها رسوله ﷺ محلها. فمنذ سنين تهشمت المعايير التي تجعل من المجتمع مجتمعاً بحق، بل تحول المجتمع إلى ركام بشر، في العالم كله ونحن معه، بالأيديولوجيات المنحرفة، والتَلَقّيات العبثية، وهذيان التمرد والعصيان... فانتُزِع حس المسؤولية من

القلوب وسُقيت القوى الحيوية بأحاسيس البوهيمية. في هذه المرحلة المشؤومة التي جرجرت فيها خيالاتٌ وأحلامٌ تتبدل كل يوم الكتلَ البشرية خلفها، ألقى من ألقى نفسه في تيارات مجهولة العواقب، فقالت أرواح منفلتة: "كم سنة وأنا مكتوف اليدين!" وقالت جبِلّات هوائية: "كم استحييتُ من أمور غير جديرة بالحياء! ليتني ما وقفت في حدود لا معنى لها!" وقال نفر عديمو المحاكمة: "تمردتُ وعصيتُ فنجوت وتخلصت" أو "اجتزتُ حدود الحرام والحلال فوجدتُ الحرية!"

والآن.. كرة أخرى يقع على كاهلنا، وعلى كواهل كل محب للوطن، حِملُ إزالة هذا التبعثر وتحريك قدرة النشاط الهامد فينا حسب آفاق فكرنا. نعم، ينبغي أن ننسحب مرة أخرى إلى حرم الروح "الملّيّة" ونستعمل حق إرادتنا إلى آخر نقطة، وننطلق في المسير مرة أخرى كالحواريين والمسلمين الأوائل، بعزم سَنَّتْه سنين الظلم والغبن الطويلة، سائحين عمراً من هجرة إلى هجرة، يدفعنا عمق الشعور بضرورة وجود الإيمان والإذعان والعرفان حيثما وجد إنسان، فنعمل على حياكةِ ما بقي من حياتنا نقوشاً على نسيج الفكر والعمل الحركي لأهل الحقيقة الّذين كسبوا رضا الله تعالى.

نحن نؤمن بأن الجميع على سطح الأرض سيُقبّلون بامتنان أيادي قلوب بهذا القوام والاعتدال إذا امتدت إليهم. فإن استطاعت الإرادات الناضجة والمستقرة، القادرة على حمل رايات ديننا ولساننا ووطننا ورسالتنا، أن تسيح في الأرض بلدا بعد بلد، فسيُستقْبَلون في الأبواب التي يطرقونها باباً فباباً، كاستقبال "الخِضْر"، فتُرتَشَفُ الأفكار التي يقدمونها كإكسير الحياة. نعم،

سينطلق هؤلاء إلى اللانهاية في صداقة موسى والخضر أينما حلوا، ويبنون سداً لحماية الذين يترقبون ذا القرنين، ويرشدون المنـــزوين في المغارات أعماراً منذ قرون إلى المعابر الموفية "للانبعاث بعد الموت". ولعلهم يقدحون – أينما خطروا – الشـــرارات الأولى لفكـــر نهضـــة كبرى هي أشمل وأوسع نهضة تهفو إليها الأعناق منذ قرون...



فهرس